

حكيم الثورة حسن الدّعينس

أ.د. عبدالعزيز المقالح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: حكيم الثورة حسن الدعيس

الكاتب: الدكتور عبدالعزيز صالح المقالح

الناشر: مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام

الجمهورية اليمنية، هاتف: ٧٣٠٤٤٦٣٤٠ - ٧٧٧٠٣٣٣٢٢ البريد الإلكتروني:

www.nafsam.org الموقع الإلكتروني: info@nafsam.org

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٩) ٢٠٢٠ - المكتبة العامة - مأرب

الطبعة: الأولى سبتمبر ٢٠٢٠م

لوحة الغلاف: يحيى الحمادي

صورة الغلاف الأخير: عبدالرحمن الغابري

تصميم الغلاف: إيمان الفقيه

الإخراج والصف الضوئي: رياض علي، محمد ناصر، بثينة عادل

شكر خاص لكل من:

أسامة المحوري، حمزة سيف الدعيس، زين العابدين الضبيبي، أنيس ياسين،
همدان العلي، أحمد ردمان الشميري، فهد الحفيظي، محمد الشعبي، عماد ربوان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حكيم الثورة حسن الدّعينس

تأليف:

الدكتور عبدالعزيز المقالح

الناشر:

مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام

٢٠٢٠

المحتويات

٥	مقدمة الناشر - بقلم: عادل الأحمدى
٩	في حضرة الكبار - بقلم: يحيى بن محمد الثلثيا
١١	صفحات مجهولة من أدبيات الأحرار
٢٥	أول برنامج إصلاح في مسيرة النضال
٣٩	ملاحم من أوضاع اليمن في الثلاثينات
٥٣	ملاحم من أوضاع الجيش اليمني في الثلاثينات
٦٧	أول محاكمة بتهمة المروق والإلحاد
٨١	ملاحق
٨٣	حسن الدعيس الفيلسوف الفطري: محمد بن علي الأكوع الحوالي
٨٧	حسن الدعيس: القبس الثاني في الحركة الوطنية: محمد بن عبد الله الفسيل

مقدمة الناشر

إنه لشرفٌ كبيرٌ لنا في مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام، أن يحمل إصدارنا الجديد اسم الدكتور عبدالعزيز المقالح، الهامة اليمينية العملاقة التي تجاوزت نطاقها الوطني إلى المحيط الإقليمي ثم العالمي، بوصفه النموذج الأبرز للأديب الأكثر عمقاً وعطاءً وديمومة على مدار ستة عقود من الزمن قدّم فيها لبلده ولأمته وللإنسانية جمعاء، ما لم يقدمه إلا عدد قليل من كبار أدباء ومفكري العالم، ليس في العصر الراهن فحسب، بل ربما على مدى التاريخ.

لقد كتب الدكتور المقالح لنا كيميئين الكثير، شعراً ونثراً، توثيقاً وتحليلاً، تقديمياً وتثميناً. وستظل إصداراته الشعرية والفكرية زاداً تنهل منه أجيال اليمن إلى ما شاء الله، على أن للدكتور المقالح إنتاجاً غزيراً يوازي تلك الإصدارات الشعرية والفكرية ويحتاج إلى بعث وتنقيب، سواء الدراسات المنشورة في المجلات المحكمة، أو تلك المقالات المنشورة في الصحف، وكلها كنوز مكتوبة بقلم أديب كبير أحبّ شعبه وبلده وأمتّه، وأحبّ الإنسانية قاطبة، ولقد حظي لقاء ذلك، بصنوف من التكريم، لكن عطاءه وإبداعه يظل أكبر من كل تكريم.

سنبلةٌ ملأى "والفارغات رؤوسهن شوامخ"، ولأنه كذلك فقد ظل يقدم بكل تواضع، لأجيال من المبدعين في اليمن والجزيرة العربية، مجسداً أنموذجاً صعب التكرار من كل الجوانب.

مؤرخ الحركة الوطنية، وراهب الوجدان اليمني، وأمين سر الاشواق العربية، وترجمان الصفاء العبقري الأخاذ.

قبل عشرين عاماً قضيت أسابيع في أرشيف مكتبة المركز اليمني للدراسات الاستراتيجية، وكان يحوي أعداداً من مجلة "دراسات يمنية" الدورية المحكّمة الصادرة عن مركز الدراسات والبحوث اليمني الذي يرأسه الدكتور عبدالعزيز المقالح، حينها ولأول مرة تقع عيني على اسم مناضل لم أسمع به من قبل؛ إنه "حكيم الثورة حسن الدعيس" كما يقول عنوان لدراسة منشورة بالمجلة على حلقات، بقلم الدكتور عبدالعزيز المقالح.

مر عقدان من الزمن، ولم يفارق العنوان ذاكراتي وظللت أبحث عن أي إصدار يتحدث عن هذا العلم الكبير، الملقب بحكيم الثورة، فيلسوف الأحرار، سقراط اليمن، ثم جاء استشهاد حفيده الشاعر والفارس خالد بن عبدالقادر بن عبدالله بن حسن الدعيس، مارس ٢٠١٩، ليعث لدي كثيرين، العديد من التساؤلات عن الشخصية التي أُنحيت هذا العبقري، خالد الحفيد الشهيد الذي سار على خطى جده الفيلسوف ضد نفس الغدة السرطانية التي تتهدد الجسد اليمني، والمتمثلة في إمارة الكهنوت.

وقبل شهور، ونحن نجدول قائمةً برموز الحركة الوطنية التي ينبغي أن يعرفهم الجيل المعاصر وأجيال اليمن القادمة، بحثنا عن تلك الأعداد من المجلة التي نشرت دراسة الدكتور المقالح عن الثائر الدعيس، وتم التواصل مع الدكتور المقالح، فوافق مشكوراً بإعادة نشر الدراسة بين غلافين.

العماق هو من يُثمن العماقة، وهذا هو نهج الدكتور عبدالعزيز المقالح. كان أولُّ كتاب قرأت له "عماقة عند مطلع القرن"، ويجوي قراءة نقدية باذخة لأدباء كبار برزوا مطلع القرن العشرين، وكانت تلك بوابتي، ليس لمعرفة هؤلاء الذين تحدثت عنهم الدراسة فحسب، بل للولوج إلى عالم كبير وقلم عظيم اسمه المقالح، عملاق فاقت قامته كل العماقة الذين كتب عنهم، لكن الشاهد في السياق أن النهر العظيم هو الذي يستقي مياهه من الجبال الشاخطة؛ يقرأ لهم، ويكتب عنهم، ويتمثلهم، ويلفت إليهم عناية الأجيال، حتى لا يعيشوا الركب وتتوه القافلة.

والحقيقة أن الرعيل العظيم الذي تتلمذ على يد العظماء، ترك لنا كل إشارات الطريق وعلامات السير، ومخارج الطوارئ، وغماذج الاقتداء، ولكننا لم نقرأ جيداً، حتى تبعثرت الكثير من المكاسب الوطنية الغالية من بين أصابعنا، وعيوننا ترى وقلوبنا تنفطر. ولقد أدركنا متأخرين، أننا سنستعيد ما فقدناه، إذا أعدنا الاعتبار لقيمنا ومبادئنا وذلك حين نعيد الاعتبار لرموزنا الوطنية التي جسدت تلك القيم وتلك المبادئ، وناضلت من أجلها ونجحت، ووصل إلينا ثمار ذلك النضال الكبير.

هي سيرة طويلة ممتدة من أقدم رمز يمني وصل اسمه إلينا، ولا تنتهي برواد الحركة الوطنية في القرن العشرين، ولعل ما يميز الدكتور عبدالعزيز المقالح في هذا السياق، أنه علم ومؤرخٌ لغيره من الأعلام في ذات الوقت، لإدراكه حاجة الأجيال اليمنية الماسة لقراءة سيرة أولئك الأعلام كون تلك القراءة ستنمي ثقة اليمني بنفسه وستعزز معرفته بالمخاطر التقليدية المترتبة به، وتفجر داخله طاقات الإبداع وتختصر عليه الكثير من المسافات بالكثير من الخلاصات والإضاءات.

من بين هؤلاء الأعلام، حكيم الثورة حسن الدعيس، رحمه الله وطيب ثراه. والحق أننا كنا إلى ما قبل قراءة وتحرير هذه الدراسة، كنا نظن حسن الدعيس حكيماً ريفياً فطرياً ورجلاً حراً ملهماً وملهماً في آن، ولم نكن نعرف أنه كاتب عميق ومحاور رشيق وأنا بالغوص في أعماق هذه الدراسة، وضعنا أيدينا على كنز وطني ثمين جداً لا يعرف قيمته سوى القليلين.

ومثلما يجتهد صائدو الكنوز في المجازفة بالقفار والجبال بحثاً عن مدفونات حلي أو قطع أثرية نادرة، ينبغي على الإنسان اليمني في هذه اللحظة اليمنية المتعثرة، أن يجازف للحصول على كنوز الثقافة والفكر والتي لا تقدر بثمن. لأننا عند استعادتنا المثلى لهذه الكنوز، نكون سلكنا الطريق السليم لاستعادة كل ما فقدناه، ثم البناء عليه لمواصلة السير في طريق العزة والكرامة والبناء.

قبل مئة عام تقريباً، كان محمد المحلوي وحسن الدعيس، يغازلان أشعة النور الكامنة وراء الجبال، وكانا يوثقان الضوء وينثرانه في عيون الركب

اليمني التائق للحاق بعجلة الحضارة التي انطلقت بسرعة فائقة بمختلف الأقطار في ذلك التاريخ. ومنهما تناسلت جهود الحرية، فكان الميلاد الكبير في الـ ٢٦ من سبتمبر ١٩٦٢، تلاه ١٤ أكتوبر ١٩٦٣، ويا له من فخر أن يصدر هذا الكتاب بالتزامن مع الذكرى الـ ٥٨ للثورة السبتمبرية الخالدة.

والكتاب الذي بين أيدينا، هو عبارة عن قراءة في إحدى الأدبيات التي تركها ابن بعدان، المناضل الدعيس، وتعكس مقدار حكمته التي تجسدت بطريقة عرضه لأفكاره المتقدمة في الإدارة والسياسة والاقتصاد والجيش، على لسانه ولسان سائح هندي، كما تم تعزيز الدراسة بملحقين أشار إليهما الدكتور المقالح في صفحاته، الأول الترجمة للشيخ الدعيس بقلم المؤرخ الكبير محمد بن علي الأكوغ الحوالي، والآخر صفحات من كتاب نحو النور للمناضل الكبير محمد عبدالله الفسيل.

لن أطيل على القارئ الكريم، غير أنني أجد من المفيد التأكيد على أن هذا ليس كتاباً عادياً بالنظر إلى صفحاته القليلة، بل هو سفرٌ عظيمٌ يحتوي على عشرات الصفحات التي يعدل كلٌ منها كتاباً بأكمله، ولقد كدنا نظير من الغبطة ونحن نرى ثلاثة من كبار رموز اليمن مجموعين في غلاف واحد: عبدالعزيز بن صالح المقالح، حسن بن محمد الدعيس، ونشوان بن سعيد الحميري.

عادل علي نعمان الأحمدي

عدن، ١٨ أغسطس ٢٠٢٠

في حضرة الكبار

حين تلقيت طلب الأستاذ العزيز عادل الأحمدي رئيس مركز نشوان الحميري للدراسات والاعلام، بالتوجيه للمعنيين في الهيئة العامة للكتاب لمنح هذا الكتاب رقم ايداع، وقعت يدي على كنز ثمين ووثيقة يمانية خالدة أطربتني وعشت معها لحظات نفيسة فكانت هذه الأسطر المتواضعة.

اعترف ابتداءً أنه من الصعب لمثلي أن يسطر تقديمًا لمادة ووثيقة كهذه التي بين يدي، فهي بموضوعها وأصحابها وتاريخها تستحق إجابة قد لا أحسنها.

الشيخ الفيلسوف والحكيم حسن الدعيس، الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح، القاضي العظيم محمد بن علي الأكوغ، المناضل والثائر محمد عبدالله الفسيل، ونشوان بن سعيد الحميري العظيم كعنوان لدار النشر، وبقوارهم العزيز عادل علي الاحمدي. أسماء كبيرة وعلامات فارقة ومنازل مضيئة في سماء اليمن الماضي والحاضر والمعاصر، وقد جمعهم الأستاذ عادل في كتيب واحد هو بحق وثيقة يمانية يجب أن يتشربها شباب اليوم ومناضلوه الذين هم بأمس الحاجة للاستنارة بأمثالها.

حين وقع نظري على اسم وصورة الشيخ حسن الدعيس، تذكرت حفيده الشهيد الخالد والاديب الأريب والبطل الشاب الاستثنائي الجاهد، خالد بن عبدالقادر بن عبدالله بن حسن الدعيس، رحمهم الله جميعاً، وحين أقول إنني تذكرت خالداً فمعناه أنني أنعي أو أبكي بعضاً مني.

كان بيني وخالد الشهيد، صداقة وعلاقة خاصة ارتقت الى مستوى أخوة أشقاء رغم قصر فترتها، تفاصيل وأحلام كبيرة نسجناها فاستعجل ومضى لركب الشهداء يمانياً لا تعتلي هامته إلا السماء.

لا أومن بحكاية الاصطفاء والعائلات الممتازة دون غيرها، لكن عائلة وأسرة مثل آل الدعيس لا يمكن إلا أن تقف وقفة إعزاز حين تراهم يتناقلون التضحية والبساطة والابداع خمسة أجيال.

عرفت خالد بن عبدالقادر معرفة عن قرب في مدينة مارب وغيرها، وعرفت لفترة، والده البرلماني الراحل عبدالقادر بن عبدالله، وجمعتني به الأحداث في مدينة عدن، وسمعتنا عن والدهم المناضل عبدالله بن حسن، وكل يماني حر سمع عن الشيخ الفيلسوف حسن الدعيس الأب الكبير الذي هو مادة هذا الكتاب سيرة وفكراً، ولعل القارئ يجد فيه ما يكشف أهمية استعادة سيرة الأباء الأبهة الذين شقوا لنا طريق النور والمجد.

لا يمكن إلا أن أف - كأقل واجب - وقفة إغزاز وأتقدم بالتحية والعرفان للأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح، أحد رواد التنوير والثقافة اليمنية الأصيلة في العهد الجمهوري، المناضل الوفي لجمهوريته وأمتة، سائلاً الله أن يمنحه الصحة والعافية. والتحية معه أيضاً للأستاذ العزيز عادل الاحمدي الناشر ورئيس مركز نشوان لمبادرته هذه، والتي ليست الأولى، وطبعاً بإذن الله ليست الأخيرة، عادل صاحب "الزهر والحجر" يعود مع الدعيس مجدداً.

تاريخنا أمانة بأيدينا. ونحن اليوم أحوج ما نكون للتنقيب عن هذه الوثائق والصفحات النفيسة لنقدمها مصابيح نور وأدلة هدى تنير دربنا في مواجهة الإمامة الحاقلة التي نكتب شعبنا قروناً طوالاً.

هي دعوة ونداء لكل الباحثين الزملاء. ظروف اليوم أفضل بكثير مما عاشه الأباء المؤسسون. ستخدمنا طفرة التقنية والاتصالات في أن نزيح الستار عن جواهر أمجادنا لتكون سلام في طريق المجد اليمني المنشود.

يحيى بن محمد الثلثيا
رئيس الهيئة العامة للكتاب
٢٢ أغسطس ٢٠٢٠

صفحات مجهولة
من أدبيات الأحرار

يبدو أن العودة بين حين وآخر، إلى تاريخ اليمن القريب ضرورة تقتضيها -بل وتحتملها- معوقات المرحلة الراهنة، فالرؤية المقارنة لبعض مواقف التاريخ الحديث، ولا أقول الرؤية التحليلية التي سوف تتأخر كثيراً، تستطيع أن تمدنا بمؤشرات نافذة القراءة ما يحدث على خارطة الواقع، فضلاً عن معرفة أبعاد الصراع الدائر بين الشعب وأعدائه على امتداد العصر الحديث.

وقد كانت الثلاثينات من هذا القرن سنوات الفرز الأولى للدعوة الإصلاحية التي تحولت بعد ذلك إلى دعوة إصلاحية ثورية، وبالرجوع إلى تلك السنوات، ومن محاولة التعرف على تفاصيل الأرضية الثقافية لطائع الحركة الإصلاحية، تبرز مجموعة من الملاحظات سوف تفيدها عند البدء في تكوين رؤيا واعية لتشكّل فكر المعارضة اليمنية في الجزء الشمالي من الوطن، وتطور هذا الفكر عبر ثلاث مراحل تحتل كل مرحلة عقداً، أو بعض عقد من الزمن. فإذا افترضنا أن فكر المعارضة في بنيتها الأولى قد بدأ في الثلاثينات، فإن هذا الفكر قد نما وتبلور في الخمسينات. ومن مجموعة من الملاحظات التي يقدمها هذا الفكر في بنيته الأولى نستخلص الإشارات التالية:

أولاً: إن الثائر الحقيقي لا يمكن أن يولد خارج موروثه وواقعه الفكري والثقافي، وإنه كما يمكن القول، بأن لكل مرحلة محافظوها التقليديون ومتطرفوها الخارجون والمبتدعون، يمكن القول أيضاً بأن لكل مرحلة ثوارها ومفكروها.

ثانياً: إن الإسلام سواء من حيث مرتكزاته الروحية، أو آفاقه الاجتماعية شكّل نواة المشروع الوطني الأول، وكان فهم الثوار الأوائل للدين الإسلامي في يناييعه المضيفة الأولى قوة للطلائع الإصلاحية في مواجهة السلطة الإمامية التي كانت تدعي الغيرة على الإسلام والمحافظة على تعاليمه في حين أنه لم يكن قد بقي لها من الإسلام سوى اسمه أو رسمه.

كما أن فكر الإسلام المستنير قد زود الأحرار في انطلاقتهم الأولى بما اقتضته متطلبات المسجلات الفكرية يومئذ من نصوص وبراهين تؤكد أن الحاكم هو من البشر الذين يخطئون، وأنه لن يردّه عن خطئه إلا تدابير عملية قادرة على صد النزوات الفردية ووضع حد للجشع والأهواء. وفي مقدمة تلك التدابير إشراك الشعب في السلطة والاحتكام إلى دستور، أو برنامج يلي تطلعات الملايين من الناس الراغبين في خوض تجربة العصر بمعايير تضمن احترام الحقوق وشرعية التعبير عن الأفكار والتطلعات السلمية.

ثالثاً: إن مرحلة الثلاثينات قد أظهرت عدداً من المناضلين الذين استطاعوا بالممارسة النضالية الصعبة، وبالتفاعل مع الواقع الذي كان خارج حركة العصر، أن يستخرجوا من بطون الحياة منظومة من الأفكار والاختبارات تستوجب منا ومن أجيال الباحثين المتخصصين، النظر الجاد والعناية الشاملة.

رابعاً: إن أهم ما استهدفت الحركة الإصلاحية تحقيقه لم يكن يخرج عن محاولة مقاومة الظلم المباشر أو اختزال زمن التخلف، فقد كانت المسافة التي تفصل بين اليمن وبين بعض الأقطار العربية تقدر بمئات السنين، وذلك لأن

نظام حكم الإمام لم يكن متخلفاً وحسب، وإنما كان على حد تعبير واحد من مناضلي تلك المرحلة صورة حية ومجسدة للتخلف نفسه^١.

وليست هذه الإشارات التي ترجع بنا مجدداً إلى رحاب الثلاثينات سوء توطئة موجزة للحديث عن واحد من أبرز أعمدة الثورة الإصلاحية في اليمن، بعد أن تجاهلته الدراسات التي ظهرت حتى الآن عن الحركة الوطنية مكثفية في كل الأحيان بالإشارة إلى اسمه مقترناً بوصف الحكيم أو الفيلسوف، وأعني به الشيخ حسن الدعيس. ولا أخفي أنني كنت إلى وقت قريب في حيرة من أمر هذا الوصف الذي كان يلحق عادة باسم الشيخ الدعيس. وقد ظننت هذا الوصف في وقت من الأوقات تعبيراً عن إعجاب الأحرار القدامى برجل ريفي حكيم، وفي أرياف اليمن بالأمس واليوم عشرات الحكماء من البسطاء الأميين الذين يمارسون - بنقاء وشرف - حل كثير من المشاكل اليومية التي يعجز عن حلها كثير من العلماء والفقهاء. لكن هذه الحيرة تبددت أخيراً بعد أن وضعنا اليد لأول مرة على جانب من الآثار الفكرية لذلك الحكيم الريفي المغمور، وهي تقدمه لنا كواحد من حكماء الشرق المنطلق من فكر الإسلام وإشراقاته المتصوفة، والباحثين في ذلك الفكر عن نهج عادل يضع حداً لما كان يعانيه مواطنوه المسلمون في شمال الوطن من اضطهاد وقهر في ديارهم التي تدعى بالمستقلة، ولما يعاني منه أشقاؤهم الواقعون تحت الاحتلال الأجنبي من تسلط وإذلال.

وقبل الاقتراب من الآثار الفكرية الباقية من معطيات ذلك الحكيم الريفي المستنير تجدر الإشارة إلى أن المنظور التاريخي الذي حدد منتصف الثلاثينات لانطلاقة البدايات الأولى للحركة الوطنية كان منظوراً صحيحاً يتطابق -حتى

١ - المقالة للتائر محمد عبدالله المحلوي

الآن- مع كل الأدبيات التي تم العثور عليها، ومنها هذا الأثر الأخير، وأن الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٤ وهي الفترة التي رافقت ثم أعقبت فشل النظام الإمامي في مواجهة الاحتلال البريطاني والتفريط في الأرض اليمنية، قد شهدت الميلاد الحقيقي لمرحلة المعارضة شبه العلنية، حيث بدا منذ ذلك الحين استقطاب التذمر في شكل حركة وطنية إصلاحية تساهم في الكشف عن أسباب المعاناة والغبن اللذين يلحقان بالمواطن، ورصد المثالب التي كان النظام يعتبرها من الفضائل كالفردية والكهنوت.

ويلاحظ أن الشعب الذي كان الطغيان قد سلبه كل حقوقه، لم يكن في ذلك الحين ينشد الحرية، أو يطمع في المدارس والمستشفيات، والطرق، وإنما كان مطلبه الأساسي أن يتوفر له قدر من الكرامة في مواجهة خصومه والطامعين في تمزيق وحدة أراضيه.

كان التأثير في البداية قاصراً على النخبة النوعية نسبياً، ثم امتد تدريجياً إلى نماذج من فئات المجتمع المختلفة في المدينة والريف. وكما خلقت ثقافتها الوطنية في المدينة فقد خلقت ثقافتها الوطنية في الريف، وتتجلى الثقافة الأخيرة - إذا جاز أنها كذلك- في القصائد الشعبية التي كانت التعبير الشجاع والمباشر عن رفض النظام الظالم، وما زالت بعد نصف قرن ويزيد، ضماناً الثورة ضد الردة والنكوص، وتتجلى أيضاً في هذه المحاولات التي حملها ثوار القرية إلى ثوار المدينة، لتؤسس البنية الأولى في الثقافة الوطنية.

ويمكن القول - بلا ادنى تحفظ- إن غياب الصحافة وفقدان الطباعة في النصف الأول من هذا القرن (العشرين) قد طمس عشرات المواهب، وساعد على دفن عشرات الأعمال الفكرية والأدبية.

وإذا كان من الصعب علينا تكوين فكرة أكيدة عن الكتابات الفكرية التي تركها الشيخ حسن الدعيس فإن هذا الأثر الوحيد الذي بين أيدينا، والذي نحاول قراءته في الصفحات التالية باعتباره شهادة على طموح فكري حاصرته المعوقات التاريخية والممارسات الظلامية للنظام البائد، أقول إن هذا الأثر بمستواه النظري يسمح لنا بالإشارة إلى احتمال وجود أو ضياع نصوص فكرية أخرى للمرحوم الدعيس كانت من حيث الصياغة وشروط المواكبة للعصر في نفس المستوى الموسوعي الجامع بين الديني والدينيوي. والباحث بين الإنتاج الفكري للعصر وممارساته النهوضية المتلاحقة عن خطوط أولى تشكل المواجهات الصريحة، أو الضمنية لمعركة الشعب القادمة مع الإمام والنظام والفصل في الجملة الأخيرة بين الإمام والنظام لا يلغي حقيقة كون الإمام هو النظام، وإنما يكشف عن ازدواجية المواجهة الفكرية السياسية.

وقد جاء الأثر الفكري موضوع الحديث على شكل محاور ثنائية تقوم بين مواطن يميني يجب بلاده ويرغب في تقدمها ومحافظتها على عقيدتها ووحدة أبنائها، وبين سائح هندي شاء حظه العاثر أن تكون سياحته في أرض اليمن المتأخر المقهور. وقد اختار الشيخ الدعيس محاورته العنوان التالي:

(حوار مع السائح الهندي)، واختبار الشيخ الفيلسوف السائح الهندي ليكون لسانه في نقد الأوضاع وتجسيد مثالب النظام لا يخلو من الذكاء، وإن كان قد أعطى لذلك السائح العابر قدرة على رؤية كل شيء في اليمن بعين فاحصة ناقدة، كما جعله يعرف من هموم اليمن ما لا يعرفه أهلها، فضلاً عن تمثله لمراحل التاريخ اليمني الحديث.

أما عن الزمن الذي تمت فيه كتابة هذا الأثر الفكري فيرجع - كما تشير إلى ذلك الوقائع التي يتحدث من قبلها- إلى الفترة التي تهاوى فيها نظام

الإمام تحت ضربات خصمه البدوي القوي عبد العزيز آل سعود، وهي الفترة نفسها التي أظهر النظام منها موقفه المتخاذل عن مساندة مواطنيه في المناطق التي امتدت إليها قوات الاحتلال البريطاني وألحقها بعد موافقة الإمام نفسه بالمستعمرات.

لقد نشأت عن ذلك الاستسلام مرحلة التحرر من الخوف، ومن طريقة التفكير الجامدة تجاه إدارة شؤون البلاد وفقاً للأهواء والاكتفاء بدور الجابي وجامع الضرائب. وبدأ النابهون في نقد الأوضاع المتردية في كل مجال، وفي فضح جهل حكومة لا تملك تصوراً عن واجبها تجاه نفسها، فضلاً عن واجبها تجاه الشعب.

وقد بدأت المحاورة على لسان السائح الهندي بالحديث عن الذهول الشامل الذي أصاب اليمنيين بعد سقوط تهامة في أيدي الغزاة دون أدنى مقاومة، وفي تهامة قبائل تميزت بالشجاعة والصبر على المقاومة كما هو الحال مع قبيلة الزرانيق التي يشير السائح إلى صمودها في مواجهة نظام الإمام غير المرغوب فيه، لقد "وقف الجيش اللجب الإمامي وعلى رأسه ولي عهد اليمن محيطاً ببيت الفقيه وجبهاتها سنة ونصف حائراً خاسراً فاستفهمت عن قيادة الزرانيق ونظامهم الذي أحرزوا بهما هذا الموقف وعلى مددهم الضروري الذي ساعدهم هذه المدة الطويلة فاستفدت أن لا قائد ولا مقود، وقد كان كل فرد منهم قائداً ومقوداً في غالب وقائع المقاومات الهجومية والدفاعية أيضاً، ولا مدد فقد كانت الإحاطة بهم كالسوار بالمعصم، وانقطع عنهم كل صلة واتصال، فكل فرد يمد نفسه أو يمد أخوه، وهنا تجلّى لي سر التضامن وقوته العظيمة، وسر ثقة المرء بنفسه أولاً وثقته بأخيه. إذا كانت قبيلته محصورة لا عدد ولا مدد استطاعت بتضامنها وثقتها بنفسها أن توقف جيش دولة يبلغ

عدده إلى ستين ألفاً، متوفر المعدات والحاجات، ومستديم الإمدادات والنجادات أوقفته سنين حائراً خاسراً.

إن في هذا لدرساً عظيماً واضحاً يتعرف به عظمة نتيجة التضامن والثقة بالنفس، ويتعرف به أيضاً سوء نتيجة عدم التضامن وعدم الثقة بالنفس في حالة الجيش، ولقد كنت مسيء الظن بعربية اليمن لعدم وجود قائد ذي كفاءة، وكأن نساء اليمن عقمن أن يلدن أكفاء من قادة ومقودين، خاصة بعد وقوفي على الحالة التي خرج منها من كان في تهامة على صورة شنيعة، وعن قوة في العدد والعدد ومنعة في الحصون والقللاع. فكم خرج منها وكم تركوا فيها، فلما وقفت على تاريخ الزرانيق الذين هم قبيلة من قبائل اليمن العربية المتعددة فعرفت وعلمت أن بني عمك فيهم رماح، وحكمت جزافاً أنكم مصابون بفوضى الأخلاق واختلالها، وهي أصل الأصول التي يبني عليها كل أصل، فإنما الأمم الأخلاق...".

ولا يقف السائح الهندي - وهو يروي ما رأى من أسباب الفوضى والفرع والذهول الناتجة عن الانسحاب. أقول إنه لا يقف عند هذا السبب الأخلاقي وحده، وإنما ينطلق إلى أسباب أخرى في مقدمتها ظلم النظام للرعايا وتحويل المياه التي كانت تسقي أراضيهم لكي تسقي أراضي الأسرة الحاكمة والمتنفذين مما قلل من الشعور الوطني، وقد رأى بعينه أن الفلاحين استغلوا دخول الغزاة وفرار جنود الحكومة ليعملوا على رد المياه إلى مجاريها السابقة قبل التحويل ثم يقول: «وإني أستخلص من رحلتي التي ذكرتها وما وقفت عليه من تنقلي في اليمن أن الفوضى عامة في سائر أركان حياتكم الإدارية والحربية والسياسية وغيرها، وأعجب ما وقفت عليه، ضيعة ذي الخير ورفع ذي الشر. ولقد آن لكم ان تعرفوا مقدار غفلتكم وجحودكم وخروجكم عن السنن بمقدار ما

نبهتم وأيقظتهم بهذا الحادث. فكل شيء عنده بمقدار، فالواقع قد وقع ومهما كانت شؤمه وسيئته عليكم فخيراته أجل وأعظم.

فقطاعته: وهل في ذلك خير؟ فأجابني: أيما خير، فالحوادث رسل العناية الإلهية إلى المجتمعات البشرية للتأديب على الخروج عن السنن الكونية والتشريعية الخلقية والحقوقية، للرجوع إليها وللإيقاظ عن غفلة وجهود، ولتعريف النقص فيتدارك، ولتصحيح غلطات اعتبارية واعتقادية ولاستجماع قوى قد خارت، ولاستعمال مهمل وترك مستعجل، ولتعرف الحاجات لتطلبها بأسبابها، ولإحياء الشعور الثمل والوجدان الميت. وللتنبيه والإيقاظ لما قد دخله الإفراط والتفريط في القول والعمل والعقيدة والاعتبار والعطاء والمنع في سائر القوى للرجوع إلى الوسط النافع ووضع كل شيء في موضعه. فإن الله لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فتفقدوا أنفسكم على ضوء الحوادث، فنور الحوادث هو النور الذي تتجلى به الحقائق ناصعة لا يشوهها ولا يسترها الرياء والنفاق والجهالة والغباوة، فغيروا ما بأنفسكم يغير الله ما بكم "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وبادروا قبل أن يحول بينكم وبين المداركة حائل فتندرجوا تحت قوله تعالى: {فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه}.

فأجبتة: العياذ بالله أن نغفل عن أمرنا، أو ما ترى ما نحن فيه من سوق الجيش بعد الجيش، فأجابني: لقد كنت معتقداً أن قد بلغتم بالتعقل والإدراك سلفاً، وأنكم قطعتم شوطاً عظيماً في الحياة القومية حيث لا سيطرة تضغط عليكم وتعترضكم، وإذا أنتم متأخرون جداً في الجزئيات والكليات، وما أعظم غلطي لما كنت أحتمل عدم تدخل الاستعمار بشؤونكم، إن ذلك لشكىمتكم وعزائمكم وإنكم قد وقفتم بوجه تيار المطامع الاستعمارية التي اكتسح

البيسطة والآن نصصح الغلط، وأيقنت أن سكون الاستعمار لا عجزاً منه ولا دفعا منكم، وإنما استغنى بكم واعتمد عليكم، وقد لا يبلغ من غيائه مهما بالغ كما يبلغ بسيركم، فهل تجلت الآن لكم الحقائق؟ لما احتجتم أنفسكم لأنفسكم احتجتم لإنفاقكم، أفوجدتم أنفسكم لأنفسكم، احتجتم لإنفاقكم أفوجدتم أنفسكم مختلفين، لتضامنكم أفوجدتم متفككين، لتناحركم أفوجدتم متخاذلين، لتعارفكم أفوجدتم متناكرين، لثقتكم بأنفسكم أفوجدتم يائسين، لصبركم أفوجدتم قلقين، لنظامكم أفوجدتم فوضويين، لنوابغكم أفوجدتم معدمين، لتدبير عقولكم أفوجدتم جاهلين. فما أغناكم ما جمعتم من مال وما وفرتم من الكماليات.

وقد جمع لكم بعرق هذا كله حادثكم هذا، وجمع غير ذلك من النقايض المادية والمعنوية. فإن كنتم متفقدين تفقدوا ما شرح وما يتبع ذلك ويتعلق به، وانزعوا من قلوبكم حب المصالح الخصوصية والأغراض الذاتية التي أبعدتكم عن الصواب وشتتت شملكم وصغرت نفوسكم وذلتها. وحلوا محلها رعاية المصالح العامة وعضواً عليها بالنواجذ واتخذوا الوسائل الموصلة المنتجة، وأقلعوا عن الخرافات كاعتقاد الأشياء بالمصادفات والفوز بالبركات والدعوات، واقنعوا كل القنوع بربط الأسباب بالمسببات، وقوموا أخلاقكم يستقيم لكم كل أمر، واجعلوا لأنفسكم من أنفسكم زاجراً.

لا ترجع الأنفس عن غيرها * ما لم يكن منها لها زاجرٌ

واعقلوا الحكم الإلهي الذي لا يتحول ولا يتبدل { ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزى به }. أما ما أشرت من حشد الجيوش لاسترجاع تهامة فقد كنتم فيها، لماذا أخرجتم؟ ولماذا تحبون الرجوع وقد أخرجتم مختارين؟ وهل قد أصلحتم وأزلتم الوحشة التي ذكرت آنفاً، إنها

السبب للخروج، وهل وثقتم من أنفسكم بالبقاء والثبات أم أردتم بهذا الحشد توطيد مركز من تسمونه عدوكم وتأكيد تملكه لقلوب أهل تهامة وشدة إخلاصهم له خوفاً منكم واستغاثة به؟.

وماذا أحييتهم من شعور الجيش الذي يدفعه ويحفزه على الإقدام والنضال؟ وما صورتهم له من غاية تحرك عزائمهم لها غير المرتسم بذهنهم، وذلك مداركه الواقع ليعود التسلط على ما لهم وحريرتهم؟ ولم أتعرف من حال جيوشكم إلا أمرين وحسبي ذلك، الأول إنهم مرغمون على الوصول إرغاماً، والثاني ما يتعلق بمعيشتهم فقد رأيت بعيني رأسي أنه يصرف للجندي قوته اليومي حباً ثم يبيعه بأقل من ثمنه، ثم يطلب شراء زاد من بائع متجر محتكر، وقد يجد وقد لا يجد. فإن جوز حسن هذا فلا حاجة للتطويل، والأولى بصرف (زلط) من أول الأمر. أما الماء فموكول للمسئ المجاهد، ويا ليت شعري كيف تكون الإعاشة في حركاتهم حيث لا حَب، فإن كان لا مشتري، فإن كان لا بائع زاد ولا وقت يتسع هذه الوسائط الكثيرة، وحيث لا رشا ولا دلو ولا إمكان نزول الآبار.. ولا آنية تحفظ وتنقل، ولا إمهال من حر تهامة، فرفقاً بهؤلاء النفوس فإنها إنسانية، وهذا من النواقص المتفرعة المشار إليها آنفاً، والواجب مداركته، وهي في رعاية المصالح العامة لحفظ النفوس وحفظ الكرامة القومية. وهذا الحال وجدته بعينه في جيش تهامة القبلية. وكأن حياتكم الاجتماعية ولدت الآن، فلم تتعرفوا شيئاً من الحاجات، أو قد استوثقتم من الدهر أن لا يحوجكم ومتى وفي لأحد؟ أو كأنكم مستسلمون بداهة وبداية فلا لزوم أن تستعدوا وتنفكروا حتى في أمر الإعاشة المتجددة يومياً التي يعم الشعور بها فإنها الدعامة الأولى للثبات والطمأنينة".

لقد استطاع الشيخ حسن الدعيس أن يجدد -على لسان السائح الهندي- أبعاد الهزيمة المريرة التي لحقت بالنظام البائد عن انسحاب قواته البائسة من تهامة، واستطاع كذلك أن يصور معاناة تلك القوات وحرمانها، وهو لا يخفي أن يشير ضمناً بين السطور إلى الفرح الذي هبط على قلوب المواطنين لا حباً في الغزاة أو تفاؤلاً ببسط نفوذهم على أرض اليمن، وإنما نكاية بالنظام المرفوض شعبياً، والذي عجز طوال سنوات سيطرته الماضية أن يتفهم هموم الناس في تلك المنطقة من البلاد، وأن يحاول الاقتراب من أحلامهم الصغيرة، وأن يخفف من جشع الأنصار والمتنفذين.

وقد تضمنت الفقرات السابقة من الحوار مجموعة من التساؤلات الجادة والتي لا تخلو من السخرية، ومنها ذلك السؤال المتعلق بالمحاولات التي كان يبذلها النظام المباد للعودة إلى تهامة بعد أن خرج منها بقواته راضياً مختاراً وبلا مقاومة: لماذا خرجتم، ولماذا تعودون؟ وهل قد أصلحتم ما أفسد وجودكم السابق وما بذره من وحشة في النفوس؟ والوحشة التي تشير إليها السؤال تعبير عن طبيعة النفوذ الذي كان قائماً بين نظام الحكم القمعي المتخلف والمواطنين، بين ممثل الحكومة ومسؤوليها وبين الأهالي، بين الفلاح والجندي. لقد أكد الحوار منذ البداية على ضرورة الاستفادة من الحادث الفاجع وما ترتب عليه وأعقبه من انهيار شامل في وجه الغزوة البدوية، وكان يرى فيما حدث الخير كل الخير إذا كان سيدفع رأس الحكم في صنعاء إلى إعادة النظر في أسلوب التعامل مع الحكوميين، وفي طريقة اختبار القيادات العادلة الأمانة. وظن مخلصاً أن نظاماً تكتنفه المخاطر من مختلف الجهات سيبدل كل ما في وسع قادته من تفكير لبناء الدولة المنهارة من الصفر، واعتبار العدل أساساً للحكم لكي يبقى ويستقطب كل أفراد الشعب، ويصنع منهم الأسوار

والقلاع الحصينة القادرة على رد جحافل الغزاة مهما كانت جنسياتهم، ومهما كانت أسلحتهم..

وإذا كانت الفقرات السابقة قد تعرضت لوضع الجيش في تلك الفترة، وتلمست له من الأعذار ما يكفي لتبرئة سلحته من عار الفرار، فإنها قد حرصت على تنبيه النظام بأن يسارع إلى رفع مستواه، فالجندي الجائع الذي يتقاضى حفنة من الحبوب ليقايض بها رغيماً لا يستطيع أن يجارب، بل لا يستطيع أن يعيش، وسوف تعود المحاورة إلى الحديث عن الجيش وهموم قيادته في صفحات أخرى لا بدّ من الإشارة إليها لما تلقىه من أضواء على وضع الجيش في الثلاثينات، وللتعرف على مناخ (الانسحاب) وما صاحبه من ظروف وملابسات.

أول برنامج إصلاح
في مسيرة النضال

لم يكن الشيخ حسن الدعيس يؤرخ لحادث (الانسحاب) كما قد توحى بذلك بعض الفقرات من الحوار الذي أجراه على لسان السائح الهندي. ولم يكن يريد أن يتشفى من هزيمة النظام المنكود، فالصمت عما حدث كان يعد في تلك الأثناء الطريقة الذكية لمن يريد للنظام المهترئ أن يتساقط بعيداً عن استفزاز الحاكمين أو الاصطدام بمناهضتهم العلنية.

ومن هنا فإن الحوار - في سياقه التاريخي - قد كان أكبر من أن يكون تسجيلاً لحادث مهما كان عمق تأثيره أو تشفياً بنظام نائم على أمجاده الفقيرة. ويمكن القول إن ذلك الحوار - وهو من أوائل الأدبيات المكتوبة - فقد كان محاولة فكرية جاءت في وقتها المناسب للاستفادة الواعية مما حدث، ولكي تسد الفجوة النفسية المخيفة التي أحدثها فشل النظام في نفوس الطلائع الجديدة، وكشف أبعاد الهوة السحيقة القائمة بين الحاكم والمحكوم، والتي اتخذت تعبيراً مخيفاً تمثل في سلبية المواجهة، وربما في فقدانها.

ولعل هذا الذي فعله الشيخ الدعيس هو ما كان ينبغي أن يفعله كل مفكر تتعرض بلاده للاقتسام في ظل نظام حكم عاجز فاشل، وفي ظروف شعب يرى أن الدفاع عن البلاد ما هو إلا دفاع عن النظام المرفوض القائم على الإكراه والسيطرة الباطشة.

لقد اختار الفكر الإصلاحية الذي يجلل الأحداث ويحاول استكناه ما ينبغي أن تتمخض عنه من مواقف تحمي الوحدة الوطنية وتصون التراب الوطني من التجزئة والانتقاص. والفكر بمعناه الضيق، ومعناه الواسع على حد سواء

مجموعة من التساؤلات المنطقية الصادرة عن الخبرات والمفاهيم القادرة على أن ترسم واقع الناس، وأن تعمل على الارتفاع مستوهم النظري، وتمكنهم من مواجهة التحديات وتجاوز الأباطيل.

لقد كان الشيخ حسن الدعيس طوال حياته رجل فكر يؤرقه واقع اليمن، وتعمل في نفسه فكرة تحرير اليمن من الكابوس الثقيل الذي ظل جاثياً على صدر الناس أعواماً بعد أعوام. وكان كما أثبت شهادات معاصريه، دائم الجدل حول قضايا بعينها. ومنها - على سبيل المثال لا الحصر - قضايا:

الاستغلال الحقيقي، ومعايير التغيير، والمسؤولية الخلقية، وحرية الإرادة، وأمانة الاختبار، ومقام الإنسان في الكون، وقدرة الإسلام المبرأ من استغلال السلطة على رسم طريق الإنسان إلى المستقبل، وخطر الخرافة والجمود على عقل المسلم وتأثيرهما على نظام دينه ودينه.

وقد استوقفت نظري بعض الكتابات القليلة التي ظهرت عن الشيخ الدعيس مفكراً، أن أستنير بأقباس منها قبل أن أعود مرة أخرى إلى استقراء ابعاد النص - الوثيقة التي تكشف لنا عن فكر الدعيس في ذلك الطور من تاريخ الحركة الوطنية.

يقول القاضي محمد بن علي الأكوع، وهو واحد من المجاهدين الذين عايشوا الشيخ المفكر وعرفوه عن قرب: "كان أحد القادة الأذكياء وأحد زعماء الأحرار الممتازين، والفيلسوف الفطري الذي لم يأخذ الفلسفة عن دراسة وتعلم، بل كان فطرة، فصار نابغة عصره، وبقعة دهره، وأحد الساسة النبلاء، وكان هو الذي يدير كافة المذاكرة والنقاش في المجلس، ويعمر مقيل الأمير إسماعيل بإسلامه، كما يأتي ذكر ذلك لا سيما في تفسير القرآن الكريم، فقد

كان يعجب ويغرب إذ كان يبرهن عن جدارة فائقة، ويظن به الظنون فيرجع إلى الكتب وعلم التفسير فيجد الحق في جانبه وكلامه الصائب وكذلك آراؤه الفلسفية. وكان يهدف إلى موافقة الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا حتى كنت أظن أنه يطالع تفسيرهما وكتبهما فسألته يوماً: هل لديك تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، أو تفسير الشيخ محمد عبده؟ فأجابني بالنفي، كما كان يميل إلى آراء ابن تيمية وآراء تلميذه ابن الجوزية في الأحاديث والتأويل والفقه الإسلامي، ويشدد النكير على من يعتقد في القبور، أو يقول بكرامة الأولياء إلى غير ذلك من الآراء الحرة والتي لا تقبلها العامة. والخلاصة إنه كان عبقرياً، كما كان سياسياً حاذقاً إلا أنه لم تتح له الفرصة".

وفي حديث الأستاذين أحمد محمد الشامي، ومحمد عبد الله الفسيل عن أقباس الحرية الأولى في اليمن نجد أن الكاتين الكبيرين يثبتان للتاريخ أن القبس الأول في تاريخ القضية اليمنية قد كان الأستاذ الفيلسوف محمد بن عبد الله الحلوي، أو موسى ذلك العصر الفرعوني كما وصفه. أما القبس الثاني فقد كان العالم الفيلسوف حسن بن محمد الدعيس "وكان بين هذا القبس وذاك اتصال متين، وصداقة أكيدة، وتوافق عقلي وروحي. وقد تأثر كل بصاحبه وتعاون معه في أداء الواجب وأقسم له أن يحمل رسالة التحرير، ويبث نور الحرية والمعرفة والحكمة في العقول والنفوس والضمائر، حتى يلقي النفس الأخير من الحياة.. ولئن كان الحلوي كما وصفناه، فقد كان هذا -أي الدعيس- أوسع منه شهرة، وأبرز شخصية في المجتمعات اليمنية، وإن كان الحلوي أسبق منه جهاداً...". وكان الدعيس رحمه الله واسع التفكير، قوي التعبير، تسيطر لهجته على المستمعين، ويجلب منطقته الحاضرين، وكان أسلوبه أسراً قوياً، وبديهيته حاضرة طيبة، ولا يستطيع السامع الفكك منه إلا مقتنعاً،

معجباً بقوة عارضته، ومثانة منطقته. كان يغشى المجتمعات اليمينية العالية وسيطر بمنطقه عليها، فلا تجد الناس إلا بين معجب به أشد الإعجاب، وبين متهيب محترم له، يحذر أن يتورط معه في نقاش، فقد كان قوي الحججة إذا بدأ الحديث، ثم يستمع إلى جواب محدثه، ويلف معه ويدور بطريقة الاستدراج فلا يشعر محدثه إلا وقد سلم أو تورط فيما لا خلاص له منه.

وكانت السلطات تهابه وتقدره وتحقد عليه في وقت معاً، وكان الأمراء يتهيئون الخوض معه في الكلام حتى الإمام يحيى نفسه، إذ كان صريحاً جريئاً قوي السخرية عميق النكتة خلاقاً، يجعلك تضحك من لا شيء، وكانت إيماءاته تعبيراً قوياً. كانت آراؤه كلها حرة، لا يبنخل في عرضها ولا يجبن عن نشرها في محاضراته التي كانت أحب شيء إليه وإلى مستمعيه. ولقد ناصبته السلطة العداوة وضايقته، فعاش عيشة الفلاسفة المصلحين، مقتنعاً بآرائه، مدافعاً عنها بكل وسائله، حتى لقد اتهمته السلطات المتوكلية - أو على الأصح اتهمه الإمام يحيى - بالزندقة، وطعن عليه في معتقده وشكل محكمة صورية لمحاكمته، ليسفك دمه أمام الجمهور بتهمة مروقه عن الدين، وإنكار البعث. وهو بعيد كل البعد عن هذا، فقد كسب القضية، وأوقع رجال المحكمة في خزي وعار، وسخر منها ومن أذنان السلطة سخرية أثارت إعجاب الخصوم أنفسهم.

وعندما لمس أن الأفكار قد بدأت تستنير، وأنه قد ابتدأ كفاح الشعب ضد ظالميه، برز غير متردد رافعاً صوته في الأحرار، فقست عليه السلطة قسوة عنيفة، وصبت عليه جام سخطها، فقيدت ذلك الشيخ الوقور بخمسة قيود في بيته، وأبقتة عشرة أيام لا يستطيع النهوض لثقل القيود فسقط مريضاً، ثم لم تشفق عليه لما ألم به، ولم تقدر جهاده السابق في تثبيت قواعد عرش الإمام

يحيي، فقد كان من أعظم أنصاره بالمال والرجال في خلال الثورة ضد الأتراك. فأخرج من بيته مريضاً، وسيق مع من سيق من معتقلي سنة ١٣٦٣ هجرية من الأحرار الذين عذبوا، أو طوّف بهم لإرهاب الناس في صنعاء وإب وتعز، وكانوا عدداً كثيراً طالبوا برفع المظالم، وتنظيم شؤون البلاد، فنفوا وزج بهم في سجون حجة.

وفي سجن حجة عاش هذا الفيلسوف المسلم ما يقرب من أربع سنوات، لم يتضعع ولم يتبرم، وكانت شخصيته قوية محترمة عند المعتقلين، وحتى حرس السجن القساة، وزبانيته الغلاظ استطاع أن يكسب إعجابهم، وبذلك خففوا شيئاً من قسوتهم على المعتقلين.

وبقي أن نسأل بمن تأثر هذا الفيلسوف؟ وهذا ما لا نعرفه بالضبط، وكل ما نعرفه عنه أنه كان ذكي الفؤاد، عميق الفكر، خصب العقل، عبقرياً متفوقاً، وكان له نظرات ثابتة في الطبيعة وما وراء الطبيعة، وفي الروحانيات والماديات. وكان مسلماً بكل ما في الكلمة من معنى وله آراء في التفسير على نمط تفسير الشيخ الإمام محمد عبده.

وفي هذه المقتطفات من سيرة الشيخ أشياء كثيرة ينبغي أن نلاحظها، وأن نتابع من خلالها أبعاده ومعاناته والأحداث التي صاغت فكرة الوطن بأفائه الإصلاحية، وطريقة التفكير والحوار اللذين كان يتبعهما ويكشف من خلالهما زيف الواقع القائم وضرورة البحث عن الإمكانيات لتغييره. وقد أجمعت هذه المقتطفات، وهي لثلاثة من المجاهدين الأوائل ممن أدركوه واستمعوا إلى أحاديثه واستناروا بأفكاره، وكما تؤكد كلمات القاضي محمد بن علي الأكوخ على ذكائه ونبوغه وعبقريته، فإن كلمات الأستاذين الفسيل والشامي تؤكد كذلك هذه المعاني وتضيف أنه كان فيلسوف الحركة الوطنية وأنه كان "يبتدئ

الحديث دائماً بالسؤال، ثم يستمع إلى جواب محدثه، ويلف معه ويدور بطريقة الاستدراج، فلا يشعر محدثه إلا وقد سلم أو تورط فيما لا خلاص له منه".

وهذه هي طريقة سقراط بعينها في محاوراته الشهيرة التي أنزل بها الفلسفة من السماء إلى الأرض كما قال عنه الفلاسفة الذين جاءوا من بعده ووصفوه بأنه أحكم أهل زمانه.

ومثلما تعرض سقراط، وهو شيخ طاعن في السن للمحاكمة القاسية التي انتهت بالحكم عليه بالموت سماً، فقد تعرض الدعيس للمحاكمات ومات كما يقول كتاب (نحو النور) موتة (سقراطية)، فقد دس له السم فمات شهيداً.

ونعود لكي نقرب من المحاورات الجديدة لسقراط اليمين، وفي هذا الجزء من الحوار يحدث الشيخ الدعيس على لسان السائح الهندي عن زعيم الهند البارز المهاتما غاندي، وكيف استطاع ذلك الزعيم الزاهد أن يقوض الوجود البريطاني في القارة الهندية متعددة القوميات واللغات والأديان.

وقد كان غاندي في منتصف الثلاثينات (من القرن العشرين) زعيماً شرقياً ذائع الصيت، وقد بهر بزهده وبأسلوب كفاحه السلمي دعة الحرية وأبطالها في العالم، وكان وهو الوثني الهندوسي، أكثر تمثلاً لقيم العدل الإسلامي من عشرات الحكام المسلمين الذين يسكنون في قصور من الذهب والفضة، وشعوبهم في العراء تئن من الجوع والاضطهاد. وهذا الجزء في المحاور يبدأ بالاعتذار عن التطويل الثقيل في النصح والاسترسال في الحديث عن واقع الناس في تهامة، ثم يمضي على سبيل الإشارة والتمثيل - كما يقول - مجملاً ومختصراً:

"حياة أبناء قومي الهنود البالغ عددهم ٣٥٠ مليون نفس، وعلى رأسهم ذلك الزعيم الفذ المهاتما غاندي الذي لا يجهل، استطاع أن يوحد وجهته، ويوجه وحدتهم مع هذا العدد الضخم المتباعد الجهات، والمترامي الأطراف، والمتباين الأديان، والمختلف المذاهب، والمتعدد اللغات، والمتباعد الطباق رغم ملوك البلدان وسلطانهم، ورغم كابوس الاستعمار الجاثم على مرافق الحياة، والقابض على مقاليد الأمور، والمطوق للوطن بقواته البرية والبحرية والهوائية والسياسية، وصير الشعب الهندي كتلة واحدة، مؤتلفين متحدين متضامين متعاونين يغضبون لغضب زعيمهم ويرضون لرضاه، حتى تنازلت بريطانيا العظمى التي لا تغيب الشمس عن بلادها ذات الحول والطول، لسماع مطالب الشعب بلسان زعيمهم وتحققها".

أتدرون بماذا بلغ هذا الزعيم ما لم يبلغه بتجيش الجيوش ولا شن الغارات ولا البوارج ولا الطيارات، ولا هيبة المال والجاه، ولكنه بلغه بصحة مبادئه، وحرصه على حفظها، وعزمته لنشرها، وتهاونه لعظمة ما يعترضها، وتحمله المشاق، وثقته بنفسه، وإيمانه بقوة الحق وغلبته، وإنما يُغلب الحق بيأس أو شك المتمسكين به، وإخلاصه لوطنه وشجاعته فلم يتهيب، وإقدامه فلم يتردد، ثم بلغ ما بلغ باجتماع القلوب حوله. أما حياة هذا الزعيم الذاتية: فضعف بنية، ملتف بثوب واحد مرقع، وكوخ صغير يأويه إن لم يكن في السجن، ومعزتان يقتات بلبنهما. أجملت هذا تصويراً للإخلاص وثمراته في هذه الأمة العظيمة المتباينة من كل وجه. فما بالكم في قِلتكم وانحصاركم وتقاربكم وتوحيد دينكم ولغتككم وقوميتكم ونسبكم مع سلامة من الضغط الاستعماري المباشر، فليس بينكم وبين بلوغكم الغاية سوى تعرفكم لما يصلحكم والعزم عليها، فانهضوا نهوض دولة مستقلة محترمة لبناء حياة استقلالكم ولوطنكم وتعظيمه

والمحافظة عليه وتخليده. حياة تحفظ كرامتكم من تهكم المتهمين وعبث العابثين، حياة كفاءة لنيل ما تريدون ودفع ما يراد منكم، فسنة البقاء في الأرض بقاء الأصلح، "فأما الزبد فيذهب جفاء"، "فإن توليتم يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

لما سكت شكرته على ما أبدى وعلى ما أراد، واستزدته ما وعد عند قوله إن الرهائن مظهر الوحشية فأجاب:

نعم، الرهائن مظهر الوحشية، بل والخوف، وذلك أمر طبيعي يتولد من بناء المجتمعات على أنقاض التاريخ السابق والجمود عليه، وقد لخصه علماء علم تطور الأمور في ثلاث هي السبب لانحلال الدول:

* كثرة مدعي الملك.

* وتعدد العصابات في العشائر والقبائل.

* وقلة المال لدفع تلك النزعات.

فإذا قررتم إزالة التنافس على الملك والقضاء على العصابات حققتم ما ترجونه من التقدم المادي والمعنوي...

ولا بدّ قبل الاسترسال في قراءة المحاور من أن نضيف هنا سبباً جديداً إلى ما سبقت الإشارة إليه من أسباب اختيار الشيخ الدعيس لسائح هندي ليكون لسانه المعبر عن تردّي الأوضاع في يمن الثلاثينات، والسبب الجديد يتمثل في إعجاب الشيخ اللامحدود بالزعيم الهندي غاندي، وما يستتبع الإعجاب

بالزعيم من إعجاب بشعبه، وبمواطني هذا الشعب الذي يرجع إليه الفضل في صنع الزعماء وخلق الأبطال.

وتجدر الإشارة هنا كذلك إلى أن سطوراً في آخر الفقرة السابقة من المحاوره قد تعرضت للتلف الذي امتد إلى الفقرة التالية التي تبحث عن أسباب غياب الثقة بين الحاكم والمحكوم، بين النظام والشعب، فقد حلت الوحشة محل الألفة كما حل الخصام محل التفاهم، ويمثل غياب الثقة بين الحاكم والمحكوم حجر الزاوية في تدهور الأوضاع وغياب الحلول.

وسوف نجد أن الشيخ حسن الدعيس قد حاول في هذا الجزء من الحوار أن يضع أول برنامج لإصلاح الخلل الذي كان قائماً بين الشعب ونظام الإمام يحيى قد أخذ به ما كانت ستصير عليه الأوضاع، وبالرغم مما حملته الأحداث في طياتها من يقين الحل الثوري وسلامته ومما يمكن للدارس أن يستوحيه عن وصول الصراع - منذ ذلك الحين - بين النظام والشعب إلى نقطة اللا ثقة واللا تفاهم، فإن المنطق الإصلاحى يقول: إن الإمام يحيى لو كان قد وضع برنامج الشيخ الدعيس موضع التنفيذ لما وصلت أحوال البلاد إلى ما وصلت إليه. ولكانت التغييرات التي شهدتها البلاد - وهي من ضرورات التطور - أكثر نضجاً ورفقاً والآن لماذا الثقة، وما هو برنامج الشيخ الدعيس؟

إن الوحشة تقول سطور المحاوره: "وقد حلل مهمتها مرور الزمن لما جرته من ويلات قضت على شعوب عديدة وعظيمة، وإنى أقطع أن في زوال هذه الوحشة زوالاً لكل سوء أوقعنا بما وقع ويفزعنا لما نتوقع، فمن ضرورة الحياة القومية الاستقلالية في العصر الحاضر التضامن والتفاهم والاتحاد والاشتراك ووحدته الشعور، وذلك متوقف على تبادل الثقة ورسوخ الاعتماد، فالمسلمون كما شبه سيد البشر كالبنان أو كالبنيان يشد بعضهم بعضاً. والوحشة مانعة

من تبادل الثقة والاعتماد، بل نتيجتها عكس ذلك، ولا يظن ظان قصوراً ولا تقصيراً في جلالة مولانا الإمام، فهو واحد الدهر، ولكن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا، وأقول إن الأمر مدارك في التأمينات التامة العامة، وأرى إقامة موثق - ميثاق - قومي عام يقرر الزعامة في تلك الذات الكريمة ويقرر تخليدها في ولدها، وهذا هو المنطبق على إرادة الشعب".

أجاب: إن الأمر كما أشرت، والصواب ما شرحت، ولكنك وقعت بما أنكرت حيث رأيت الاجتماع العام، وكل اجتماع يتوقف على صدور الأمر الشريف، وعلى ما عللت يرجح عدم الإمكان، الصواب قد عرف.

وبقيت الوسائل الموصلة المسهلة لإزالة الوحشة، أجاب: "كدنا نبليغ والصعوبة أن التفاهم في هذا الموضوع متعسر، فيستحيل تصريح جلالة الإمام وكذا غيره. وهذا ما وسع نطاق الوحشة وفتح بابها على مصراعيه ودخل منه الداخلون وتغلبوا، وهم الآن عقبة عظيمة في هذا الموضوع حيث لا حياة لهم إلا به، إلا أن الحادث هو أن سلطتهم بما كشف من حظ مبادئهم ونتائج سلوكهم، فالأقرب أن تلخص المبادئ التي تقام عليها الحياة الجديدة فإن الحادث قد فصل بين حياة الماضي والمستقبل. فيدرج موضوع بحثنا في ذلك اندراجاً، والذي حضرني ما يأتي:

١- أن نبي حياتنا الجديدة على وحدة شعبنا داخل حدوده الطبيعية البرية والبحرية واستقلالاً تاماً لا يتداخل فيه ولا يخل بزعامة مؤسس استقلالنا.

٢- إن مبدأنا الأول لا يدخله التبديل والتعديل.

٣- تحقيقاً للمبدأ الأول وتحفظاً به وحفظاً له تفرض العسكرية العامة بدون استثناء.

- ٤ - المبدأ الثاني، نبي حياتنا على التضامن والتعاون في سائر شؤون حياتنا الاجتماعية وسلوك سبل الترقى المادي والمعنوي ما يجعلنا أمة حية قوية محترمة.
- ٥ - تحقيقاً للمبدأ الثاني نلتزم خلق الصدق والأمانة والوفاء لإنتاج تبادل الثقة التي يتوقف تحقيق الحياة الكاملة عليها، وجعل هذا الخلق عنوان الكرامة والتفاضل، كما أن ضده عنوان الإهانة والانحطاط.
- ٦ - المبدأ الثالث تحمّل المسؤولية العامة والخاصة بلا استثناء في رعاية المصلحة العامة وإماتة الخاصة.
- ٧ - تحقيقاً للمبدأ الثالث لزوم تحديد الوظائف والمعاملات بنظام شامل، ويستلزم التشاور والانتقاد.
- ٨ - المبدأ الرابع تمتع كل فرد بالحرية الاجتماعية لا الشخصية والمساواة في الحقوق المادية والمعنوية والتفاضل في الصفات والأعمال بالنعف العام.

هذه هي المبادئ التي كان المفكر الدعيس يري أن في تحقيقها إزالة للوحشة القائمة بين الحاكمين والمحكومين في يمن الثلاثينات، فلحكم سيضمن بقاءه في الحكم دون منازع، احتراماً للميثاق وللإجماع الشعبي، والمحكوم سيجد في تحقيق هذه المبادئ ما يضمن له الحياة الكريمة وما يضمن لبلاده الارتقاء المادي والمعنوي ويجعل من اليمن وطناً قوياً محترماً. وعندما تكون الشورى حقاً ممارسةً ويكون الانتقاد الموضوعي حقاً مصنوعاً، ويكون تحمل المسؤولية في ظل المساواة من حق كل مواطن دون استثناء أو تمييز يكون قد تحقق التغيير الشامل في حياة الناس والبلاد.

وإذا ما قرأنا هذه المبادئ، أو الأهداف الأربعة في ضوء ظروفها، فسوف ندرك أن الأحرار اليمينيين كانوا منذ البداية يعرفون مشكلة بلادهم، ولم يكونوا يتحركون في فراغ من المنطلقات النظرية التي تشكل أوليات مشروع الخروج من مأزق القهر والتخلف. كما لا بدّ أن نلاحظ الأهمية البليغة التي أولتها الطلائع الوطنية لوحدة الأرض اليمنية وحرصها البليغ على الاستقلال. وسوف يفاجئنا الهدف الخاص بفرض العسكرية العامة، وهو التعبير المعادل للتجنيد الإجباري، أو خدمة الدفاع الوطني.

ملاحم من أوضاع
اليمن في الثلاثينات



لعل الخطوط العريضة السابقة من برنامج حكيم اليمن، قد أوضحت أنه لم يكن -حتى ذلك الحين- من دعة التغيير الشامل، وإنما كان في طليعة الإصلاحيين الذين كانوا يرون ضرورة إصلاح نظام الإمام يحيى انطلاقاً من مصلحة النظام أولاً ومصلحة الشعب ثانياً. فقد أثبتت أحداث (الانسحاب) أن الشعوب لا تقاد بالفوضى، ولا تستطيع الخرافة -مهما كبرت- أن تسيطر على أبناء تلك الشعوب كل الوقت. وقد تضمن الحوار مع السائح الهندي مجموعة من الأقوال التي لا تؤكد أهمية الإصلاح والخروج بالبلاد من دائرة التخلف الذي ظن لفترة طويلة أنه الوسيلة المثلى لحماية اليمن، والابتعاد بها عن رياح التغيير، وإذا به -أي التخلف- يكاد يعرضها للضياع بعد أن التهم القادرون منها ما شاءت لهم شهيتهم وساعدت عليه ظروف انفتاحهم على الآخرين.

وقد كان الإصلاح في تلك المرحلة التاريخية الاختيار الصائب، لأنه يضمن للبلاد شروط النهوض والاستقلال، كما يضمن للنظام نفسه شروط البقاء. لكن ظاهرة جمود النظام كانت ظاهرة مركبة كما يقول علماء الاجتماع وكانت لها أبعادها الفكرية والسياسية ومن ثم فإن الإصلاح في وجودها ضرب من المستحيل، وما أشارت إليه فقرات من الحوار عن قابلية الإمام بعقليته الجامدة للإصلاح لم يكن سوى مبالغة في الأماني واختصار زمن المتاعب والمعاناة التي ترتبت على الانتقال بالنضال. ويلاحظ أن الفقرات في هذا الجزء من الحوار قد تداخلت، وتحول السائح الهندي -بعد أن كان مسؤولاً- إلى مثير

للتساؤلات، ولا سيما وأنه قد أظهر عجزه عن استيعاب الأسباب التي تجعل حاكماً محاصراً معزولاً يرفض الأخذ بوسائل النهوض وتلمس طرق الإصلاح.

يذهب السائح الهندي في حديثه المتشائم إلى أن اليمن بفقدانها لتهامة قد تحولت إلى جزيرة محاصرة مغلوبة، ويكاد يقول إنه لا فائدة ترجى من الحديث عن أي برنامج إصلاحي، فيرد محاوره اليماني قائلاً: "إنك نظرت إلى المسألة من وجهة واحدة فأنكرت، ومن الوجه الآخر لم ارك تستنكر، وهو حالنا الحاضر... تعتبر المذكورة فوزاً عظيماً وتغلباً وتوفيقاً، ومتى أصلحنا أنفسنا وبلغنا درجة الأحياء، فالقوة هي المحددة، وما أعظم نعم الله علينا بما أبقى لنا وستر علينا وأدبنا وأيقظنا ولزوماً اعتبار الحادث فاصلاً بين الحياتين؛ حياة الماضي والمستقبل، وقد كفيتم أيها الرفاق طول التفكير والتدبير لتفرغ القادة في بناء الحياة الجديدة، فالحادث قد أحيا الأدمغة المفلوجة، وأقام الأفكار المعوجة، وقوم التصورات والاعتبارات المقلوبة، وشحذ الهمم وأحى الموتى.

أتوقع (...). الغيرة العرشية (نسبة للعرش) السيادة فوق ما نتصور، فإن تصوراتنا بحسب عنصرنا العربي، وما علينا سوى الاستعداد لإنقاذ ما يقرر بتعاون وإخلاص. واستشعار ما ولده الحادث من الشعور والاندفاع، وتعرف الخطأ والصواب، وظهور الحقيقة بوجهها الواضح، وما ولد من غيرة وشجاعة، وإنما يُحدث الشجاعة الغضب. أقدر مع ذلك أن لا تمضي مدة يسيرة جداً إلا ونحن أمة قوية بكل معنى الكلمة بالسير فيها جذعاً فاهناً بالعيش، وتمتع بالسعادة الاجتماعية والعزة القومية كثيراً.

وليكن الآن المهمة حسن إعادة الجيش وتتبع درجة حرارة إبعاده ومراقبتها، وصرف الهممة بالتعاون لمراقبة نهوضهم والعناية في تلطيفه عن حدود الاعتدال، فاللعلوم أن الحادث قد ضاعف الحرارة للمسير نحو مراكز الحياة

والمستوى في اعتبارها، والتحمس لأجلها الرفيع والوضع فلا يسمح بمسها والتهاون بها فكن متعصباً لها، وتفضل الموت دفاعاً عنها، وتحميس السيادة المنظمة إليها القيادة تتضاعف درجاتها على غيرها، بذلك يحسن أن يكون على اتصال بهم ليعرف".

ويصمت المحاور اليماني ليبدأ السائح الهندي حديثه الذي تضمن قدراً من التفاؤل تجاه ما يمكن أن تصنعه الأحداث من تحسين الأحوال، وفي مقدمتها الجيش، يقول: "إنا وإن كنا في اشتغال بواجب عظيم قد وصلنا إلى درجة عظيمة، فإن لزوم إعادة الجيوش ضرورية، وأقترح أن نكون على الدوام في اتصال وتبادل الآراء، وبعث المعلومات، وبذل عناية كل منا في تتبع الأفكار الناضجة، وتُعرف حركات القيادة، وتدوين الآراء على قاعدة ما شرعنا به لتسلسل البحث فإن النتيجة بين البحث والشؤون الاجتماعية لا انقطاع لها. وأقترح اقتراحاً لا يقبل التعديل، اجتماعنا دائماً بعد مضي ستين يوماً من يوم عود كل منا بمجمل التقارير اللازمة، وهذه المدة بينها انتظار وتُعرف نبض الحياة، وإحالة الفكر".

ويمضي الحوار على هذا النحو الرامي إلى بحث أسباب الحادث بدلاً من تكرار الحديث عنه، أو بحسب تعبير السائح الهندي (أرى تصور وتذكر الحادث على الدوام يولد بجرارته عدم الاعتدال). وإن أردت أيها الأخ أن تذكره وتصوره مخافة النسيان، وموت الوجدان، فلا أحسب ردى وجداني مهما سقط. أما ترى أيها الأخ أدنى الناس أخلاقاً، وأضعفهم همة يأنف ويتحمس ويتوجع متى لمس عرضه أو شرفه، أو حرمه أو مقامه أو هضمت حقوقه، والحوادث محولة الطباع، فإنك ترى أشد الناس بخلاً، وأعظمهم جحوداً، وأسوأهم جبناً

تحول الحوادث مسلكهم، فترى البخيل كريماً، والخامل نابهاً، والجبان شجاعاً، وحسبنا قول الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"، وإن موتنا أشد موت وأعظمه مرارة فإنه تتبّع مراكز الحياة كلها وقضى عليها.

وهنا كما أشرت في الفقرات السابقة تتداخل الأسئلة بالإجابات، وتكاد تختلط شخصية السائل بشخصية المجيب. "أجاب: لم أبدأ رأيي جهلاً بالحدث وآثاره، فبعض ما جاءنا به كافٍ لينبه أعظم الناس سقوطاً، وأبلغهم جموداً، ولكن... لها أثرها في التناسي والنسيان، الأول المصاب الاجتماعي ضعيف الأثر في الأفراد إلا إذا بلغ المجتمع درجة التطابق واتحد الشعور، والثاني شيوع اعتبار المصالح الخاصة، ومتى تغلب هذا الاعتبار مات الشعور بالكرامة.

أجبت: معروف ومعقول ما شرحت غير أن الحادث مفرع مقطع، وكما أثبت أنفاً إنه محول لأرسخ الطباع. ولو فرض هذا الحال لكان لنا في مقام السيادة، وكونهم القيادة ما يؤمن هذا التخوف لشعورهم الخاص بأنفسهم، فنسبة سهمهم من آثار الحادث تسعة وتسعون في المئة، فرعايتهم لمصالحهم الخاصة سواء كانت بالشرف أو السيادة، أو القيادة. واحتياطاً مع الفرض والتقدير؛ أقترح حيث سيتجه كل منا إلى وطنه... أقترح بذل العناية في تتبع أحوال الخاصة، وتعرّف اتجاه الغايات، ودرجة الاعتبارات، وأعني بالخاصة القادة والعلماء، وهنا انفض الاجتماع إلى وعد اللقاء المضروب".

لم يعد أسلوب الحوار في هذا الجزء من الأثر الباقي للشيخ حسن الدعيس يقوم على طريقة السؤال والجواب، وإنما أصبح حواراً بين اثنين أحدهما يقول

رأياً، والآخر يعقب عليه أو يضيف إليه. ولم تعد الاجتماعات مصادفة، وإنما صارت محددة ودورية. وستبدأ من الآن صاعداً في مناقشة أوضاع البلاد على ضوء الحادث الأليم الذي سببه التخلف، وكان نصيب النظام فيه كما ثبتت الفقرة السابقة تسعين في المئة، فقد كان النظام مسؤولاً عن إعداد الشعب وإعداد الجيش واعداد الكفاءات والقيادات، فالشعوب الجاهلة المحرومة من أبسط حقوقها تكون لقمة سائغة للبعيد وللقریب.

يقول الحكيم: "وفي اليوم المقرر للاجتماع لم يتأخر أحد، بل ضم (انضم) إليهم من محبي القومية عدد أحبوا الحضور، وافتتح الحديث الأخ قائلاً: أيها الإخوان، لقد علم كل منا مجمل الحال العمومي وإن ما صدق الحال واحد وإن اختلف التعبير والتصوير، وإن تقارير كل منا متفقة هو إن ما قدرناه باجتماعنا السابق في السادة القادة لم يثبت منه شيء، فما أعظم غباوتنا حتى اتفقنا على الخطأ في التقدير. فأجاب الأخ: لا تستعجل فإنك تخطئ، فلو قدرنا ما قدرنا بأحط الناس همة ومروءة وشيمة لم نكن مخطئين بعد وخز الحادث المؤلم، فكيف نكون مخطئين يا..... العرشي (بتسكين العين نسبة إلى العرش الإمامي).

ولقد علمت من هذا الأخ وأشار إلى معلم ناحية جبل راس أنه المعين من وزارة المعارف معلماً للفتحة وأركان الصلاة لعموم الناحية بمرتب شهري ريالين تعجز (أي ريالين إلا قليلاً)، وقد لا يفني إن جدّ واجتهد، وأعني بالمعارف المعارف الحيوية التي عليها نظام الحياة الاستقلالية التي تطرد الجهل والفقر والسقم والعجز والفساد، وتنتج العظمة على مختلف اعتباراتها، فهل يوجد مكتب في ذلك أو إدارة متوجهة نحو ذلك. أما التجار فلم أعن بالواردات والصادرات ذاتها، وإنما نطاقاتها وهيئة استعمالها، فالتجارة قد صيرها العصر الحاضر غاية الغايات واعتبرها خلاصة الآلات، وكل ما تراه من مزاحمة دولية

وتعبئة جيوش واستعداد معدات واختراع آلات إنما هي لشد أزر التجارة ونفوذها والاستثمار بها واستثمارها وإيقاف التزاحم فيها، وإنني أقدر ما يستفيد الأجنبي من اليمن اضعاف ما يجنيه الإمام لبيت المال أو يساويه.

فأجبت: وكيف ذلك؟ فقال: إن أقرب نظر أن يتعرف عدد نفوس اليمن (عدد السكان) وما يستلزم لكل نفس من الحاجات ملبوسات ومأكولات ومشروبات، وكل حاجة مما يطول حصرها الملخص أنها استغرقت متاعبكم وجهودكم كلها في تأمينها وقد تقصرون عن إيفائها، فأقل ربح الأجنبي من وراء كل نفس ريال، أما إذا أضيف إلى ذلك حاجات الحكومة من آلات حربية ولوازم ضرورية وكمالية فأمر كبير. وخلاصة القول إن الشعب سخرة للأجنبي بمعنى الكلمة، فمن أين تولد ثروة، ونعني بالتجارة المنظمة لا المبعثرة، وهي التي تقوم على مبدأ الاقتصاد، وعلى الشركات، وعلى التبادل في الصادرات والواردات، فالتجارة عنوان الاستقلال وسلاح الاستعمار. فأجبت: لم يزل جلاله مولانا الإمام يفكر في التقدم إلى الأمام في كل مشروع حيوي، وقد توصل إلى إقامة شركة براس مال كبير. فأجابني: بشرى والله وخطوة إن شاء الله بعدها خطوات، وكم بلغ عدد المشتركين فيها؟ فأجبت: حاز جلاله مولانا الإمام النصف من الأسهم وسبعة من كبار تجار العاصمة النصف الآخر. فأجاب: وما هو الأمر الذي أسست لأجله؟ أجبت: لشراء الدخان من الخارج وبيعه في الداخل بمعرفة الشركة ومنع غيرهم.

أجاب: ما أسرع استردادك للبشرى. بشرتني بإطلاق اسمها وأفزعتني بحصرها في ثمانية. إذن ليست شركة، إنما هي وحدة غلط، أو غولط في تسميتها، ثم ماذا كان من الانتفاع العام من إقامتها؟ هل عادت على الوطنيين برخص الدخان على الأقل؟ أجبت: لم يحصل ذلك، بل ارتفعت الأثمان. أجاب: وهل تعدوها

تقدماً ومصالحتها لأهل..... أن تسمى شركة خارجية، أو تسمى شركة الثمانية، أو تسمى بإنتاج الغلاء شركة الاحتكار والسلب. أما كان لكم مندوحة أن تؤسسوا بذلك المال شركة وطنية تحمون بها رأس مال صادراتكم البن، أو تقيمون به شركة تكون مهمتها تأسيس معامل بعض الحاجات الضرورية المتقارب تناولها والمستئين قرب إنتاجها والمرجح الربح فيها، وعلى الخصوص ما تتوفر موادها بكثرة في اليمن كالجلود ودباغتها، والصابون والزجاج والكبريت والدخان نفسه، والبياض والشمع والروائح العطرية، والقطن وتفرعاته، وغير ذلك مما يعم به النفع بالتشغيل والتقليل للحاجات من الخارج، والتبصر في المصالح، والتدرب على الأعمال والتدرج إلى الرقي، وإن الأقرب والأرفق لمصلحة الوطنية منع دخول الدخان إلى اليمن لمصلحتين عظيمتين بالبداهة، الأولى استبقاء للوطن ما يستهلك فيه ويصير في جيوب الخارج، والثاني دفعاً لأهل اليمن أن يبدروه في أراضيهم ويستثمرونه، ولو لم يكن إلا اختباركم لإنشاء هذه الشركة على ما نشرح وعدولكم عن كل نافع عام، وتوهمكم إن خطوتكم وأصلحتكم يكفي في تسميتكم متأخرين. وأما الصناعات فقد استحققتكم نعمة العقل وما وهبه الله لكم من المواهب المستعنة والمؤهلة للاختراع والإبداع، ولقد تصفحت درجة حاجاتكم للحاجيات والكماليات فوجدتكم شديدي الحاجة... بالكماليات، ومع هذا لم تبعثكم الحاجات على النظر والتفكر في تأمينها كما هو شأن بني الإنسان، فلحاجة تفتق باب الحيلة، وإن ما تقاسون من مشقات تأمين حاجياتكم مما يثير العزائم لإحياء الصنائع، فلو فرض موت شعوركم بحاجاتكم لأثارتكم همة العجز عن أدنى مرافق حياتكم."

يمكن القول إن الحديث الذي كان قد بدأه الشيخ الدعيس مع نفسه على شكل حوار يقوم به بدور السائح ويقوم السائح الهندي فيه بدور المسؤول، قد تحول إلى ما يشبه الندوات يدعى إليها عدد من المهتمين بما كانت البلاد قد وصلت إليه في أعقاب ذلك (الانسحاب) الجارح.

وقد استمر السائح الهندي، أو الإنسان العالمي المحايد يصف لليمنيين (أبعاد المسألة) التي يعانون منها في مختلف المجالات. ومن خلال التحليل العميق لأوضاع التعليم والتجارة وبقية المرافق التي سيأتي دورها. وقد لاحظنا في بداية هذا النقاش كيف كان الوضع التعليمي في البلاد من خلال (معلم ناحية جبل راس) الذي بعث به وزارة المعارف (لكي يعلم الناس الفاتحة وأركان الصلاة) ولا يهم في هذا المجال مبلغ الراتب الذي كان يتقاضاه ذلك المعلم بقدر ما يهم الباحث والدارس لظروف تلك المرحلة غياب التعليم وعدم وجود المدارس، واكتفاء ما كان يسمى بوزارة المعارف بإرسال من يعلم الفاتحة وأركان الصلاة!!

ومثل هذا الكلام - وهو عين الحقيقة - قد لا يصدم مشاعر الجيل الجديد أكثر مما قد يثير إشفاقه على الأجيال التي عانت من تغييب الوعي ومن الحرمان الشامل، وقد انتقل النقاش من التعليم إلى الاقتصاد فأوضح كيف كان حرص النظام على الكسب السريع والمحدود ينسيه أبسط مسؤولياته إزاء الشعب والوطن.

وقد كشف الشيخ الدعيس - وهو يستنطق السائح الهندي بمشكلات اليمن - عن وعي متقدم بأهمية الاقتصاد وتقنياته وعلاقته بالغزو السياسي والعسكري. وسوف تكشف الصفحات التالية - وهي عن الأوضاع الإدارية في البلاد - معرفة الشيخ واستيعابه لأهم الخصائص في أنظمة الحكم المعاصرة.

يقول -والحديث ما يزال على لسان السائح الهندي-: " هذا وترددي في أمرين يتعلقان في الشؤون الإدارية لم أجد لهما احتمالاً. الأول: عدم وجود هيئات شورى في كل مراكز الحكومة ودوائرها مع مساس الحاجة لذلك بالضرورة للتشاور بجريان الأمور على وجوه الصلاح والأصلح، وحل ما تعقد، والبت في الخلافات والسير بمقتضى الأحوال، وناهيك بعظم شأن التشاور تنويه القرآن الكريم بشأنه وأمره لأعقل المخلوقين وأطهرهم من الهوى وأبعدهم عن الخطأ والزلل. والثاني: عدم المسؤولية على أحد في أعماله مع أن ذلك لازماً ضرورياً (في الأصل هكذا مع أن الأصل هو الرفع) لنظام الاجتماع ليتميز الخبيث من الطيب فيجازي خيراً على الخير وشرّاً على الشر حتى لا يزيد المسيء جراءة وتمادياً، ويزهد المحسن في إحسانه.

فأجبت: إن مبادئ الأحوال تلازم عدم إتقان الأمور، وكان تعيين الولاية على العهود المألوفة وشغل جلالة الإمام بمهمات الأمور التي تحدث عند إقبال دولة وإدبار دولة خاصة متى كان ذلك... واضطر جلالة مولانا الإمام أن يعين الولاية بدون اختبار لهم ولا فهم، وأن يشرف على الأعمال ويربطها به صغيرها وكبيرها مخافة.. فوسع نطاق التداخل حتى لم تحدد وظيفة يصح تحمل الولاية المسؤولية، ولما استفحل الضرر رفع غير واحد إلى جلالة الإمام للفت نظرهم الشريف إلى المداركة وكثيراً ما أصدرت المنظمات المحددة، غير أن نفوس الولاية أبت التقيد بالنظام، وكان من صالحها عدم ذلك، وعدم حمل المسؤولية فتذرعوا بكل وسيلة وأفرغوها بقوالب المصالح حتى كاد يفقد الثقة والاعتماد على ما يصدره (المقام الشريف). وأصبح الغيور على دولته ووطنه معرضاً لكل إساءة إذا رفع صوته بالانتقاد وطلب الإصلاح، ولهذا ارتفعت المسؤولية.

فأجاب: لا يبعد ذلك وما هالني أمر من هذا القبيل أشد مما وقعت عليه أيام مروري في العاصمة وإقامتي فيها أياماً، فقد كان شغفي شديداً على التتبع والوقوف، ومن ذلك تتبع أحوال من تسمونهم كتبة (المقام الشريف)، فكنت أقف بأبوابهم مع الواقفين لانتظار الإذن أو خروجهم، وكنت أستعد وريقة أطلب فيها ما يبلغني من المال كوني عابر سبيل أجوز بها تردي على أبوابهم، ويوم سألتني أحد الواقفين. فأجبت: إني طالب، فرق لي، فلما خرج الكاتب لفت نظره إلي فسمح لي بالإفشاء بحاجتي، فسلمت له الريقة قائلاً: من إحسانك قضاء حاجتي، فطالعتها بسرعة وأعادها قائلاً: ابتداء الإحسان منك، استفهمت ما أراد فاستفدت بأن أقدم بين يدي نجواي صدقة لإخراج الصدقة، وأقل المبادلة ريال. وأغرب ما استغربت مطابقة غرض الخصمين في أمر واحد ذا نفي وذلك إثبات في آن واحد تحت الختم الشريف.. ووجدت نفسي كثير التعداد لما أعتبر ذلك مهارة فأقدرها وخيانة عظيمة فأسخط، وجرأة يهون مجنبها إقدام عنتره ومضارية عظيمة الأرباح كأنها في أحد بورصات العواصم، وما استغربت أمراً كما استغربت هذا السلوك الفوضوي وعدم تحاشي المسؤول لعظمة المقام، وما يليق به من حفظ وإتقان نظام الإصدار والإيراد وعظم المسؤولية.

فأجبت: لقد كان وقوفك فوق ما نعلم فلا نكتملك أنه لو أُعتبرت المسؤولية ولزم تعرف المسؤول لكان نصيب تلك العصاة تسعة وتسعين في المئة.

ثم استأنف القصص فقال: ومما لم أتعقل الحكمة فيه ما وقفت عليه من مراسيم الولاة، فلم أمر بمركز إلا وأرى الوالي محاطاً بلجند كأنه مجرم يساق إلى السجن بعد تبليغه الحكم بالإعدام، أو خارجاً من السجن بعد تبليغه الحكم بالإعدام، أو خارجاً من السجن إلى المقبرة، فهم شاكوا السلاح خوفاً من تفلته

من يدهم، وكنت أقصد دور الحكومة في كل مركز أمر به فأجدها كأنها ثكنات عسكرية، ومراراً أظهار بالدخول كأنه لا مانع فأدفع الباب فأقول إنها حكومة مفتوح بابها لمن شاء الدخول أنى ومتى شاء، وخصصت لتسهيل مصالح العباد فلماذا تمنعوني؟ فيكون جوابي الدفع العنيف. وكنت أحتمل تفردى بهذه المعاملة لغرابتي وغربتي، وأمكث بعيداً أتصفح الغادين والرائحين إلى الحكومة من أهل المحل على اختلاف طبقاتهم، فلم أجد إلا العدل والمساواة بين الحاضر والباد (!!)) فهذا ما لم أتقبل حكمته.

فأجبت: الحكمة معقولة وهي حفظ هيبة الحكومة، وشيء يتعرف به الوالي ويمتاز به.

فأجاب: "ليس من الهيبة في شيء، فالهيبة في العدل الذي لا يعدل عنه، والقرب وتسهيل المراجعات، فالظالم والباغي والخائن والمفسد إذا علموا أن لا حجاب ولا تفسير ولا محابة عظمت في أنفسهم الهيبة وأقصروا عن الشر. ومتى كان الحق هو المعطي والمانع والمقدم والمؤخر والخافض والرافع انتظمت الأمور، وصلح الجمهور، ولكن جهالات بموضوع الحكومة وموضوع الإنسانية".

هكذا يتنقل بنا حكيم اليمن في حوارياته من موضوع إلى آخر. ومن الريف إلى المدينة. وهو تارة يأخذ موقف المدافع أو المبرر لبعض الأخطاء، وتارة يأخذ موقف المؤيد الراض لتلك الأخطاء. وهو - كما رأينا - لم يكتف بأن يجعل السائح الهندي الذي جعله ينطق باسمه ويحلل الأخطاء وي طرح الحلول، بل وصل به إلى العاصمة ليتمكن الحكيم من رصد الانحرافات التي يضح بها (المقام الشريف)، أو قصر الإمام حيث يعاني المواطنون وتمتص دماؤهم ذئاب

الكتبة وثعالب الحاشية من كونوا الثروات الواسعة وكانوا مخالب الظلم الفاحش.

ولا بدّ لي من الإشارة هنا إلى أن نص الحوار الذي تأكلت بعض كلماته فضلاً عن تصحيف بعض الكلمات الأخرى قد أربك بعض الفقرات الواردة في هذا الجزء بخاصة، وقد اضطررت أحياناً إلى وضع نقاط بدلاً عن الكلمات غير المفهومة أو التي قد تسبب للقارئ ارتباكاً في فهم المعنى المقصود.

ملاحم من أوضاع
الجيش اليمني في
الثلاثينات

في هذا الجزء من حديث حكيم اليمن ما يهم كل اليمنيين والعسكريين منهم على وجه الخصوص لا سيما أولئك الذين يعدون دراساتهم العلمية عن أوضاع الجيش اليمني قبل قيام الثورة المجيدة التي قادتها طليعة وطنية من ذلك الجيش البائس بعد محاولات لم يكتب لها النجاح.

وقبل الوقوف على نص ذلك الحديث الخاص بأحوال الجيش الذي كان يسمى بالمتوكلي نسبة إلى صاحب السلطة المتوكل على الله، لا أجد مفراً من التساؤل عن أهمية بناء الجيوش، ولماذا تقبل الشعوب -حتى الغفيرة منها- أن تنفق على قواتها المسلحة بسخاء؟ هل لتكون زينة في المناسبات، أم لتكون قوة باطشة بيد الحاكم الفرد، أو لكي تكون قوة لحماية البلاد من الغزاة وحماية حدودها الدولية من العدوان والانتقاص.

والحق يقال إن الجيش المتوكلي لم يكن من الجيوش التي ينفق عليها الشعب أو الدولة بسخاء، ولم يكن زينة للنظام، فقد كان في حالة تبعث على الرثاء، وهو لذلك لم يكن قادراً على الدفاع عن البلاد وحماية الحدود، وقد اكتفى بأن يكون قوة باطشة في كف النظام المتخلف في مقابل الأجر الزهيد الذي كان يتقاضاه من الدولة أو ينتزعه من الرعية.

وعندما انتقلت إليه الحقائق الجديدة للتطور الذي لحق الجيوش العربية حتى تلك التي كانت تعيش في قلب الصحراء، تحول رضاه إلى تمرد وصمته إلى انتظار، وكان حادث الانسحاب بداية الوعي بالقهر والحرمان. واعتقد أن أحداً لن يتمكن من إدراك أبعاد التمردات والثورات التي قادها الجيش أو كان

طلعتها ما لم يتبين أبعاد المعاناة التي كشفت عنها الصفحات المهولة من تاريخ الثلاثينات ومنها هذه الصفحة التي جاءت على لسان السائح الهندي في حوار مع الشيخ الحكيم:

"وسألته وقوفه على الجبهة العسكرية أجب: وقوفي بسيط إلا أنني أعملت كثيراً فراستي في الضباط في كل أيام استعراض الجيش ولم أجد فيهم شخصية بارزة. وجمعي المستشفى الروسي بضابط مراراً، فتعارفنا وتبادلنا الحديث وقلت له:

ليس للعسكرية مستشفى يغنيك عن هذا؟ أجب: مستشفى تقليدي لم نجد فيه التيسير والعناية كهذا. فاندحشت لانعكاس الأمر سواء حمل غرض الأمة الروسية بإنشاء المستشفى مجاناً رحمة بالإنسانية أو غرضاً غامضاً، فالوطنيون لا رحمة ولا غرض.

وأجابني أن مقدار مرتبه عشرة ريال، وأنها لم تؤمن بعض الضروريات، وأفاض الشكوى له ولأمثاله حيث أن مراتب غالب العسكريين ما بين الـ ١٠ والـ ٢٠ وأفراد قلائل يتقاضون ما بين العشرين، ومرتب أمير الجيش أربعون، واستفهمت: من أين يؤمنون ضرورياتهم؟ أفاد: يؤمنونها إن كانوا مقيمين في العاصمة من سلب كلِّ وما تحته، وإن كنا في بعض المراكز فنحصل على الأجر والرسم. فقلت: وما هي الأجر والرسم؟ - بكسر الراء وفتح السين - فقال: الأجر يرسل العمال والحكام العسكر على الرعية بأسباب الحقوق وتشكي بعضهم بعضاً فيأخذ منهم بالمسافة أو التراضي، والرسم مما يؤخذ من المحابيس بحسب حال الخبوس. فقلت: لقد كنت مستغرباً مما أشرت من الأجر، وأغرب

ما تسميه رسم، فهل ذلك واجب رسمي أم دفعكم على هذا الاستعمال الحاجة؟
أجاب: إن في الأجر تعليمات شريفة وعايد لبيت المال على كل نفر ريال
شهرياً، يقطع من معاشه علاوة على العائدات لمن فوقنا لتسد التعاين وطول
البقاء.. وكذا الرسم.. لقد كان على الرسم عائد لبيت المال تحت مزايمة
المزايدين فما أدهشني كسماع هذا فقلت: يا للعجب فقد بلغ من نظام سجون
الأجانب في المأكل والمشرب والمسكن والصحة، وكل ذلك على حساب
الحكومة مهما بلغ الإجماع أو غنى المسجون. والنظام الإسلامي أحق بالرعاية،
فكم بلغ حب الفلوس حتى تفرض على الحبوس. فأسأل الله لك يا صديقي
أن يوفقك في الخدمة الطيبة والثبات والسبق في ميادين النزال ما تستحق بها
التقدير والترفيح فيزداد قدرك وراتبك، فتستغني به عما ذكرت.

وشعرت كأن نائرة غضبه ثارت فيه وأجاب بخشونة: ليس الترفيع على
الأعمال ولا الأهلية فثمن المرء ما يبذله لا ما يحسنه، فلو فتح الفاتح الأندلسي
لسبق البازل على الفاتح فادع لي أيها الصديق أن يتوفر لي المال لأبذله فأفوز.
فأجبتة: أعفني من الدعاء بذلك لأنك مقيد بخدمة لا تقبل حرفة يتوفر بها،
فدخلك من سلب ما تحتك وأجر ورسم مما يكون الدعاء فيه جريمة وإثم. وما
كنت لأقابل أنسي فيك وما عقد التعارف من التحابب أن أدعو لك بسوء في
دينك وخلقتك ومقامك العسكري.

فقال: يا هذا إن دعوات الداعين لا يقصد بها إلا هذا، وما سمعته منكراً
مثلك أو معتبراً اعتبارك. وإن هذا مسلك العالم والجاهل والشريف والوضيع،
بل العاكفين في المساجد لأداء الصلوات وتلاوة الآيات فإننا نستأجرهم
للتلاوة.. بنية أن يتيسر من هذا الرجل.

فقلت: أيها الأخ لا استبعاد لما ذكرت متى عم الاستعمال وتكرر فينقلب المنكر معروفاً والناس في خير ما تباينوا فاعذرني..

وسألته: هل وزارتكم الحربية مستقلة؟ أجب: ليس لنا وزارة ولنا إمارة جيش مهمتها محدودة، وكل شيء مربوط بجلالة الملك، وما تعني بالاستقلال؟ فقلت: التدبير في الشؤون الحربية حركة وسكوناً. فقال: ليس لنا تدبير لا في حرب ولا في سلم، فمتى خرجنا من العاصمة انقطع ارتباطنا بإمارة الجيش، ويتولى التدبير سكوناً وحركة العامل، الذي نرسل إليه. فقلت: وكيف تدربون تدربون على الحركات الحربية وأمركم بيد غيركم؟ فقال: أما التدريب في إقامتنا بالعاصمة نتدرب كل أسبوع يوماً. فقلت: يا هذا إن تلك الحركات لا تجدي نفعاً، وأعني بالتدريب استقلال القيادة في الحروب فعلاً ما تحصل ملكة التدبير والمهارة وتعرف مواقع الخطأ والصواب ومواقف الفوز والخيبة ففقد الحوادث هو الذي تدرك فيه الحقائق غير مشوبة. أجب: لقد أفدتك ان لا دخل لنا في ذلك. ولم تكن واقعة وقعت تتولاها الجهة العسكرية مستقلة، وقد لا يسمع ولا يعتبر إن أبدى أحد....".

تشكل فقرات هذا الحوار الموجز تقريراً شاملاً عن أوضاع الجيش اليمني في منتصف الثلاثينات من هذا القرن -الفترة التي شهدت الانسحاب- وهذه الفقرات من أقدم الشهادات عن الظروف السيئة التي كانت تحيط بالجيش وتؤثر في إمكانياته وتمنعه من ممارسة واجبه الأول وهو الدفاع عن حدود البلاد. وقد أشارت إحدى هذه الفقرات إلى وجود مستشفى روسي في الحديدة

آنذاك لعلاج الجالية التجارية الروسية التي غادرت البلاد بعد ذلك، وأغلقت برحيلها المستشفى الوحيد الذي كان بعض الجنود والضباط وبعض المواطنين يلجأون إليه عند اشتداد المرض. وقد تضمنت الفقرة الخاصة بالمستشفى الروسي المذكور إشارة ساخرة بالنظام الإمامي الذي لم تكن تربطه بمواطنيه لا الرحمة ولا الإنسانية ولا الغرض السياسي وهما واحد من هدفين وراء إنشاء المستشفى الروسي وفتح أبوابه للمواطنين اليمنيين في ذلك الوقت المبكر من تاريخ العلاقات اليمنية السوفيتية..

وقد حددت فقرات أخرى من الحوار -التقرير- أسوأ صورة ممكنة في تاريخ الجيوش في العالم.. من خلال الحديث عن الرواتب وكيف أن النظام قد أطلق أيدي المتنفذين الكبار في المتنفذين الصغار، وجعل الرشوة قانوناً تأخذ الحكومة بموجبه مضافها فضلاً عن نجاح هذا (القانون) في توسيع هوة الخلاف بين الشعب والجيش بين الفلاحين الفقراء والقوات المسلحة التي لم تكن قادرة على البقاء دون انتزاع لقمة العيش من أفواه الجائعين. وها هو الشاعر الشهيد محمد محمود الزبيري يقول:

والجيش يحتل البلاد، وما له في غير أكواخ الضعيف مقامٌ
يسطو وينهب ما يشاء، كأنما هو للخليفة معول هدّامٌ

ولا بدّ أن المستنيرين والوطنيين من الضباط قد أدركوا أبعاد الهدف الخفي للنظام من وراء ذلك المخطط الذي يجعل الجندي مصدر خوف المواطن، لا سيما الفلاح الذي استقر في ذهنه من خلال الممارسات الظالمة أنه قد أصبح المصدر الوحيد الذي يرتزق منه الجيش، وأن الضباط وبقية موظفي الدولة يحرصون على خلق المشاكل بين الفلاحين حتى لا ينقطع مورد الرزق الدائم.

وقد تسبب ذلك المخطط الرهيب في هجرة عدد كبير من الفلاحين الذين لم يكونوا يرغبون في مغادرة قراهم والاستعاضة عن الحقول الخضراء بالنجم وتنظيف شوارع المدن البعيدة.

ويلاحظ أن الشعر الذي استطاع أن يجسد موقف (الجندي المتوكلي) من الفلاح البائس لم يغفل كذلك عن تجسيد موقفه من المساجين تأكيداً للفقرة السالفة من الحوار، والتي تشير إلى ما كان يحصل عليه الجنود من كل سجين باسم (الرسامة) وهو ما لم يحدث في أي مكان من العالم حيث تتم مراعاة حقوق السجين واحترام ظروفه حتى لو كان غنياً قادراً على البذل والإنفاق. لأن ذلك يخالف قانون العقوبات ويدخل في مجال الابتزاز.

ومما جاء في قصيدة أخرى للشاعر الشهيد محمد محمود الزبيري الأبيات التالية من قصيدة يصف فيها قسوة التعذيب وبطش جنود الخليفة:

إذا استفاق أسير من متاعبه لبتة بندقة الجندي ورجلاه

فن من البطش والتعذيب مبتكر خليفة الله للأجيال أهداه

سيقوا جياً ولم يسمح معدّهم أن يستعدوا بزاد يوم بلواه

وسار من خلفهم جند زبانية إذا أتوا خزنة من أمرهم تاهوا

يستمنحون من الأسرى مآكلهم يا لؤم من راح يستجدي ضحاياه

لا يحتاج القارئ إلى وقفة طويلة مع البيت الأخير ليستخرج أبعاد العلاقة الغريبة بين المانح والممنوح. بين الأسير الذي يجد نفسه مضطراً إلى إعالة جلده، وإلى الجلاذ الذي لا ينجل من أن يعيش على حساب أسيره. وقد سألت ذات مرة أحد أولئك الأسرى بعد أن تحرر من سجنه عن أثر المساعدات التي

كان المساجين يقدمونها طوعاً أو كرهاً لسجانهم. قال إنها لم تكن تغير شيئاً، وربما على العكس من ذلك كانت تضاعف من رغبة السجان في ممارسة القسوة، ولم يكن يعتبر ما يقدمه السجين مساعدة أو حتى رشوة، وإنما كان يعتبرها حقاً وضرية واجبة الدفع، وهو ما يفضح المستوى المتدني للتخلف ويقدم صورة النظام بشكل عار.

إن عملية إصلاح الضابط في جيش الإمام، وتحويله إلى مواطن شريف كانت بالضرورة تسبق عملية إصلاح الجندي، كما أن النجاح في إصلاح الضابط والجندي معاً يتوقف على إصلاح أوضاعهما المعيشية، وهذا ما تولت حركة الأحرار بعد ذلك توضيحه وتحديد برامج للخلاص من آثاره.

وباستثناء القلة القليلة من الشرفاء في الجيش وفي صفوف المدنيين فقد كانت قابلية التلوث عامة. وكان التميز كما يقول الضابط في حوار الثلاثينات، لا يتوقف على المواهب أو على الكفاءة، وإنما على البراعة في كسب المال واختراع الوسائل المناسبة لنهب الأبرياء وسلب ما يملكون. وهذا هو السبب الذي جعل السائح الهندي يعلن رفضه الدعاء للضابط بالثراء لأنه يدري أن تحقيق ذلك لن يكون الا من دماء الفقراء وعرق نضالهم اليومي في سبيل توفير لقمة العيش. وكم يثير الحديث عن الجيش في العهد المباد من شؤون وشجون، ولربما كشفت الأيام عن مزيد من المعلومات التي تساعد على تكوين الصورة الموضوعية الشاملة.

وكما بدأ الحوار بين الشيخ الدعيس والسائح الهندي حول حادث الانسحاب وما ترتب عليه من قلق عم اليمين بشطريه، فقد انتهى الحوار بما بدأ انطلاقاً من الجرح الفائر الذي تركه الانسحاب المفاجئ في نفوس اليمينيين سكان الجزء الغربي من البلاد (تهامة) وهو الجزء المطل على البحر الأحمر

والذي يشكل جغرافياً بالنسبة لشمال الوطن، الرثة التي تمد بقية الأجزاء بالحيوية والحياة، فقد لاحظ المتحاوران أن انسحاب قوات الجيش الناتج عن عدم الثقة بالمواطنين في ذلك الجزء من البلاد قد وضع هؤلاء المواطنين الصادقين في ولائهم لوطنهم والمشكوك في ولائهم للدولة الظلمة، أقول إن الانسحاب قد وضعهم في مواجهة القوات الغازية، وأكد لهم أن عليهم في حالات تكرار الغزو أن يواجهوا الغزاة بالعصي والحارث. ولذلك فقد اتجه الحوار بعد ذلك نحو محاولة إيجاد وسيلة حقيقية لخلق الثقة بين الشعب.

وقد كانت الوسيلة كما حددها حكيم اليمن على لسان السائح الهندي مجسدة في التغيير الشامل والإخلاص في تطوير مرافق الحياة. ولكن السؤال الأهم الذي طرحه الحكيم نفسه هو:

إن التغيير ضروري لاستعادة الثقة والأمل، ولكن هل ستوافق الحكومة على إحداث ذلك التغيير، وهل سيصدق الشعب وعدّها إذا ما وعدت. إنه يستبعد ذلك.

أما السائح الهندي فهو يجيب قائلاً:

"لا أستبعد (التغيير) فإن الحادث كشف الستار وأبرز الحقائق ناصعة، وأقنع قنوعاً نفسياً أن الحياة الاجتماعية في الاتحاد والتضامن، وأن القوة هي اجتماع القلوب وثقتها بنفسها، وأن موضوع الحكومة رعاية المصالح العامة وحمايتها وتوسيع دائرتها. وأن ظهور المصالح الخاصة أسباب الخراب والدمار، فالحادث من الحوادث الإلهية التي تكون للتغيير ولم تدرك الكافة من أثره إلا ما انعكس من وقفة وفهم في المقامات السامية فإن الموجه إليهم بالذات ولم يكن

أمير المؤمنين أيدهم الله في جريان المعاملات السابقة، إلا متحرياً الأصحح للدولة وأكملها، ولكن عوامل أغراض خفية قوية عملت أعمالها بقوالب ظاهرها الصلاح وظاهرها الفساد، وما كان للرجل من قلبيين في جوفه فالحادث كان مؤذياً وموقظاً ومعرفاً وكاشفاً لما ستر، فهيهات أن يدوم الحال بعد كشف الحقائق لأمير المؤمنين الحريص على الصلاح والإصلاح.

أما تصديق أهل تهامة لوعدنا فإنه وإن قد حل الياس محل الرجاء فإن لصدق المتكلم وعزيمته وإخلاصه تأثيراً في قلب السامع سنة إلهية ولتكرر الثبات على المبادئ تمكيناً في الثقة، وأما الصلح فأمره عظيم والخلاف الأصلي متولد من الاختلاف السلمي والمتولد بعد الانفجار... فإن يكن أساس الصلح على يد الهيئة الإسلامية على الاختلاف الأولي، فالجنوح للسلم محتم علينا، بل والتسامح، فقد حصل بالتدخل ما يمس كرامة الطرفين، ولحفظ تلك الكرامة يتولى المصلحون بصورة خصوصية إصلاح ذات البين الأول وما يصلح به حال البلاد والعباد، وكذا إصلاح الحال بين أهل تهامة والإمام بتقرير ما يزيل الوحشة، ومثل ذلك المحلات التي كانت التداخل فيها على صورة خصوصية بين الحكومة وتبعاتها، وهذا أقرب للتقوى والتفاهم..

كما يؤمل من الهيئة المحترمة أن يستشعروا من معلوماتهم السابقة وما ألموا به الآن ما يدفعهم أن يستوصوا ويؤكدوا التوصية بكل ما فيه الحياة ويلخصوا ما تدعو إليه الحاجات وسير المعاملات ووسائل بلوغ الغايات.

فالحادث جم المنافع، فقد أدب وأيقظ، وبين مواقع الخطأ والصواب، وهياً الأسباب للهيئة المحترمة أن تجتمع ذاتاً ورأياً، وأن تظهر بالفعل بزعامتها الروحية لأداء مهمتها وبذور الصالحة المنتجة وربط العلاقات القومية.

هذا وإن يكن أساس الصلح على الحوادث وبحس شموخ الأنف، فالرفض محتم علينا، والخوض في أمر تهامة خوض في نفس حياتنا، فتهامة وسواحلها ميناء اليمن، وهي بمنزلة الهواء للإنسان فلا تفاهم في الأمر ولا تنازل مهما بلغ الحال وليلزم أن تقرر ما يحس إن كان الآخر، أجب: يحكم الحسام فإنه الفاصل ولا احترام إلا للقوة، وقد توفر لنا العدد والعدة وها إن الجيوش محيطة بالحيط التهامي والجبلي محضرة للهجوم العام فليكن.

أجاب: عندي أن لا نستعجل تحكيم الحسام في العجلة على مقتضى حالنا الحاضر، لا تفتح الغاية المطلوبة لا من حيث قوة العدو وشجاعته وضعفنا وذلنا ولكن بالأمر الذي.... فليس العدو الذي غلبنا ووسمنا بالذل والهوان وسلبنا ما كان لنا من مقامات إجلال واحترام في القلوب الخارجية، فليس غير أنفسنا ووحشتنا بعضنا من بعض، وسوء تديرنا وعدم نظامنا وتضامننا فداخليتنا غير مرجوة، بل غير مأمونة. أما أنها غير مرجوة فالقلوب متباينة والحرب لا تقوم إلا بالناصحة ولم يصور لها من وراء إقدامها غاية فتصدق عزائمها، ولم يكن من النظام ما يكفل التحفظ على الثبات. وأما أنها غير مأمونة فالحدث هيج الأمراض القلبية وصير القلوب أميل للانتقام والتخلص من الحكم، أو على الأقل ترجيح ذلك، وأنجي السبل أن نجد ونجتهد في إصلاح داخليتنا ويُلخَّص بإزالة الوحشة وأسبابها.

أجاب: حسنت التأخير، فالسكون بعد الرفض تأكيد للذل والقضاء على البقية من الاعتبار.

أجاب: الذل وتحقيق المغلوبة بقبول الصلح على تنازل شيء من حقوقنا وما علينا إن لم نتقيد بقيد ولا عهد، وأن نطلب حقوقنا أنى شئنا، ولا نظر لكثرة عددنا وعددنا فالمعتبر اجتماع قلوبنا، فاجتماع القلوب مع القلة أعظم

إنتاجاً مع التفرق، بل لا إنتاج، ولا نجاة من الهوان. وإني لأرجو بحول الله وسبحان الله وسنة الله بالتضامن والاتحاد ما نرجو. وقد ألهمت أن تشكل هيئة من نخبة رجالنا على اختلاف طبقاتنا للإصلاح تفرض في تقرير الإصلاحات لسائر أركان حياتنا".

عند هذا الحد توقف الصفحات المجهولة من حوار الثلاثينات دون أن يتوقف الحوار الذي لا بدّ أن صفحات أخرى منه قد فقدت. ويلاحظ أنه بالرغم من أن هذه الصفحات قد كتبت في ظروف الانسحاب الفاجعة، وهي ظروف اتسمت بالمرارة الوطنية والحسرة الخاصة والعامة، فقد ظلت أمينة في رؤيتها، ولم تترك للانفعال أن يفقد الكاتب أو المتحاورون إن كانت هذه الصفحات قد ضمنت عدداً من الآراء، أقول لم تترك من الصفحات للانفعال أن يفقد المستنيرون رؤية الأبعاد الحقيقية للخلل الذي حدث، وإمكانية تجاوز ذلك الحدث حرصاً على كيان البلاد، وحفاظاً على وحدتها الوطنية.

ولا ينسى الحكيم وهو في قمة الانفعال الوطني أن يؤكد أن العدو الذي غلب البلاد وتسبب في قهرها وانتقاص أرضها ليس إلا نحن بما أشعناه من أساليب الحكم القاهرة التي تسببت في نشر الوحشة بين الإخوة والأهل، وليس العدو الأول الذي أحدث ما أحدث من هزيمة سوى سوء التدبير وفقدان النظام وضياع التضامن. وكان الحكيم عظيم الأمل في الدور الذي ستقوم به هيئة التحكيم الإسلامية التي تألفت من عدد من الشخصيات الوطنية والفكرية البارزة أمثال شكيب أرسلان، وأميين الحسيني، وعبدالعزیز الثعالبي، وغيرهم ممن حملوا راية الإصلاح، كما أنه - أي حكيم اليمن - كان يدعو إلى تأسيس هيئة أو جماعة أهلية من اليمنيين أنفسهم لدراسة أوضاع

البلاد، واقتراح الحلول للمشكلات القائمة، ومعرفة الأسباب التي جعلت أبناء اليمن في تهامة يرفضون التصدي للغزاة، لا عن ضعف وإنما نكاية بالنظام الظالم والمفروض بقوة الحديد والنار لا بالاختيار والتفاهم والرضى.

أول محاكمة بتهمة
المروق والإلحاد

إذا كانت الصفحات السابقة من هذه القراءة الأولى في آثار حكيم اليمن الشيخ حسن محمد الدعيس قد تركزت حول وصف الجمود السياسي والاجتماعي وأثره في تفكيك وحدة الشعب وتساقط أجزاء من الأرض اليمنية في الشطر المستقل بدون مقاومة، أو بمقاومة هزيلة حتى انكشمت (المملكة المتوكلية) في حدود جغرافية ضيقة، كادت بعد الانسحاب المشؤوم تغدو شريطاً جليلاً محاصراً من جميع الجهات، أقول إذا كانت الصفحات السابقة مما تبقى من آثار ذلك الحكيم قد تركزت حول ذلك الموضوع وهو الأساس، فإن بعض الصفحات منها قد أشارت إلى الجمود الفكري، وهو الناتج الطبيعي للجمود السياسي والاجتماعي، وقد وصل الحال إلى اعتبار استخدام التفكير أو إعمال النظر في الحياة أو الكون ضرباً من التجديف الذي يهدد استقرار الأمور ولمس العقيدة..

ومن خلال رواية الشيخ الحكيم لقصة اتهامه بالإلحاد والمروق والزندقة ومحاکمته السرية التي استغرقت وقتاً من الزمن، وكانت الأولى والأخيرة في البلاد بعد أن وجد الإمام في قراراته الفردية ما يغني عن كل محاكمة. أقول من خلال تلك الرواية تتحدد الأبعاد الخطيرة للجمود الفكري والإرهاب، وفي الوقت ذاته تتأكد من وجهة نظر فكرية بحتة، شجاعة الطلائع الأولى وقدرتها - في ذلك الحين - بالرغم مما كانت تعاني من الحياة الفكرية من جمود وافتقار على أن تكسر حدة ذلك الصمت المضروب حول اليمن، وأن تهز كيان النظام الهروبي المذعور. وثبتت بسلاح المعرفة المتواضعة أن أية قوة في الدنيا تبقى عاجزة عن أن تستمر في عزل شعب بأسره عن التطورات الهائلة في مجالات

المعارف الفكرية التي باتت تتحرك عبر فضاء عريض من وسائل الإيصال المختلفة، وفي مقدمتها (الراديو) الذي كان قد بدأ في نقل التجارب البشرية عبر الأثير الذي يتخطى حدود المكان حاملاً زاده العقلي والروحي.

كان الشيخ الدعيس يعيش في قريته الهادئة، يقرأ، ويفكر، ويسهم في حل المشاكل الصغيرة التي تواجه أبناء قريته والقرى المجاورة، وكانت مشكلته أنه عاشق لليمن، حريص على أن تتقدم وتتحرر، وكانت العاصمة مصنع الأخبار ومقياس حركة التقدم. لذلك فقد كان دائم التردد عليها غير عابئ بمشاق السفر حيث يقطع المسافة بين قريته وصنعاء في خمسة عشر يوماً ذهاباً. ولم يكن يرضى بأن تساق إليه الأخبار، فضلاً عن شوقه الدائم إلى الأصدقاء الذين كان يناقش معهم قضايا البلاد وهمومها، ويجد في أحاديثهم أملاً حقيقياً في التغيير مهما طال مداه.

وحين يكون الشيخ الحكيم في صنعاء فقد كانت جلساته تتحول إلى ندوات فكرية تتناول الدين والتاريخ والأدب وآخر أخبار العالم، ولم تكن صنعاء بالمدينة الكبيرة التي تخفي في شوارعها وميادينها وأحيائها الأنشطة الفكرية والسياسية، بل كانت لا تختلف عن القرية، وكان في مقدور النظام أن يعد أنفاس سكانها وأنفاس القادمين إليها، لذلك قد كانت ندوات الشيخ معروفة وأنفاسه معدودة، وكان وجوده في هذه المدينة إلى قريته حيث بسطاء الناس من الأميين المشغولين بزراعة الأرض وحصدها، وذات يوم كان في مدينة صنعاء وفي منزل أحد كبار المسؤولين الأثرياء والمهتمين بقضايا البلاد ومشكلاتها، وقد ربطته بالشيخ صداقة فكرية حميمة، وكان في المنزل عدد من موظفي الدولة وكتبة الإمام. ودارت في (المقيل) أحاديث حول الحياة والموت، وماذا أعده الله من نعيم مقيم لعباده في العالم الآخر. وقد تناول الشيخ الحياة بعد الموت من

زاوية صوفية فلسفية مما أحرق بعض الحاضرين وجعلهم يزيدون ويضيفون إلى أقواله ويبلغونها إلى الإمام.

ويبدو أن ذكر الموت قد أزعجهم وأقلقهم على المصير وعلى مغادرة ما امتلكوه، أو بالأصح ما سلبوه من عرق المحرومين والفقراء، فزاد حقدهم على الشيخ الحكيم الذي لم يكن يريد من وراء حديثه إزعاجهم على مصير المتعة التي ينعمون بها بقدر ما كان يرغب في أن يطمئنهم لو أحسنوا عملاً إلى ما وراء هذه الحياة الفانية من حياة خالدة ومن (جنة) عرضها السماوات والأرض.

ولم يكذب يبلغ الإمام ما دار في ذلك (المقيل) حتى قامت قيامته، ووجدتها فرصة لن تعوض للقضاء على ذلك الثائر المتفلسف الذي بدأ يهزّ سكون المدينة، وي طرح على السنة المستنيرين بعض التساؤلات التي سوف تؤدي حتماً إلى زعزعة النظام والتشكيك في صلاحياته للبقاء.

لقد تدخل الشيخ الدعيس فيما لا يعنيه، وتحدث عن اللجنة واليوم الآخر بما يتناقض مع المفهوم القرآني، وهو بذلك يخالف الإسلام ويخرج على تعاليم الدين الحنيف، وهو يردد أقوال الفلاسفة ويقف مع الزنادقة في صف واحد. ولا بدّ من محاكمته وتشويه سمعته بتهمة المساس بالشريعة، لكن المحاكمة أثبتت أن الشيخ لم يكن سهلاً، فقد استطاع أن يدافع عن نفسه، وأن يفلت من الكمين ويعود إلى قريته الصغيرة سالماً لكي يعود مرات أخرى إلى العاصمة ليستقرئ ملامح الثورة التي تتكون في هدوء من خلال تعميق فكرها الغائب، ومد آفاق المؤثرات إلى أقصى أفق إنساني ممكن، وتحويل القنوط إلى أمل.

وإلى القارئ ما كتبه الشيخ حسن الدعيس بخطه عن ملابسات المحاكمة، مسبباتها، وما أحاط بها، بطريقة لا تضاعف من سخط الإمام أو تثير غضبه، وقد حاولت هنا أن لا تظهر الأسماء التي شاركت في إعداد الكمين للشيخ لأن الجريمة من صنع النظام نفسه، أما الأشخاص فلم يكونوا سوى أدوات محكومة. وليس الغرض من استرجاع وقائع هذا الحادث رصد الخيانات، وإنما محاولة التعرف على الواقع الإرهابي، وعلى تدني مستوى الفكر والأخلاق في ثلاثينات هذا القرن، وكيف كان المواطن في هذه البلاد محروماً من أبسط الحقوق الفكرية، الأمر الذي ما يزال يعكس نفسه على النتاج الفكري لسنوات ما بعد الثورة، وبعد أن اختفى إلى الأبد ذلك النظام بالغ الصلف والغرابة!!

تحت مختلف الذرائع إذن كان المواطن اليمني المستنير مطلوباً، ومع تتابع الأسلوب القمعي تشوهت الرأس اليمنية، أو بالأصح صار العقل المستنير مدجناً وتابعاً ومصادراً، ولم تتمكن سبعة وعشرون عاماً من الحياة في النور أن تخرج هذا العقل من معسكر الاعتقال، ولن نسترسل في التدايعات، وسوف نكتفي فيما يلي بإثبات النص الذي أشار فيه الشيخ الدعيس إلى واقعة المحاكمة والأسباب التي أدت إليها يقول:

"في يوم من أيام ربيع ١٣٥٠ هـ في منزل.. ونجله الكريم، و.. و.. ومجلس يزدهي ويزدهر بأمانة وورثاسة. وبقدر الصمود يكون الهبوط، والأشجار خفت والتفت، قد ألقى عليها الربيع الحلي والحلل، غصونها باسقة ونجومها ضاحكة فانبعث من تلك الحال ذكر حياة من وجوه كثيرة لمشيئة الله في تطور الإنسان منذ كان نطفة فعلاقة فمضغة فعظماً فلحماً فبشراً سوياً فحياة الجنين بطن أمه في ضيق وظلمات تتنافى مع حياته بعد وضعه في الفضاء المتسع. وحياة القبر

عبر تباين هذه الحياة لا تتحمل ضغط الهواء ولا فقد الزاد والماء ومنها تطور الحياة وارتقاء حالاتها تنتهي بحياة الجنة، وأنه لا يدرك من علم وفهم ما علم وتمتع بإدراك الحقائق في هذه الدنيا من اللذات المعنوية الروحية ما يشغل لذاته المادية وتبدل اعتباراته، بل اعتبارات كل فرد يبذل اعتباراته.

وجر الحديث إلى استقراء تطورات الإنسان من مهده إلى لحد، فعلم أن ما يقول ويثبت أن الطفل في بطن أمه ينعم بخير ولذة ويسر بتمكنه منها ويبكي لفراقه، تنعكس بدخوله الطور الآخر اعتباره الأول، ثم وثم للشهوات الطيبة والنفسانية التحكم باعتبارات الخير واللذات وللعوارض والضعف أحكام وللعقل المتنور. وهكذا يدور الحكم مع العلة فليس كل ما يعتبره الإنسان في هذه الحياة خيراً ولذة، ولا ما قد تصور ارتسم واستقر في الحياة والمعنويات هو كذلك في الآخرة، فهذه حياة النوم تباين اعتباراتها حياة اليقظة فإنه يستشعر الإبصار بلا حاجة ولا نور وأكل بلا فم وبطن وبدون يد ويمشي بدون رجل ويحس انفعالات النفس في الألم والسرور وقد يكون تمهيدا لتصورات حياة ما بعد الموت.

وجر الحديث إلى الحكمة الإلهية في النكاح ولذته، واستقر الرأي أنه لحكمة التناسل ولا تناسل في الجنة. هنا توهم أحدنا أن من لازم هذا القول عدم النكاح في الجنة مع أن الله قد صرح بزواج الحور العين فليلق له إنه يعلم من زواج الحور استكمال لذة حياة الجنة، وللذات كما سبق اعتبارات تليق بدرجة التطور ومنها لكمال حياة الجنة، وليس الزواج منه بحضور لذة النكاح المعهود والمألوف والمعتبر، بل ولا في طور هذه الحياة، فلذة النظر والشم وكرم الأخلاق ولطافة الطباع وأنس المعشر ومبادلة المعلومات إلى غير ذلك، فكل واحدة منها بانفرادها أعظم لذة يستهان بجنبها لذة النكاح. ولقد أعقب الله ذكر الحور

والولدان المخلدتين كأمثال اللؤلؤ المكنون، ومعقول يراد من مجموع هذه الصفات هذا المنظر الرائع العجب الجذاب.

وتناول الحديث الشفاعة، وما قيل إنها متعذرة إلا بإذن الله، وإذا كانت بإذن الله فإنها ضرب من التكريم يختص الله بها بعض عباده المقربين، وليس لها دخل في نقض ما أبرم الله، وأن يكون في أعماق قلب المشفوع له من الإيمان ما يميزه بالشفاعة عمن لا يشفع له. هذا ما خطر لي مما دارت به الذكرة، ولقد كانت محاضرات لذيذة يرتاح لها الفكر السليم، وكان من مجموع من أدارها المخلص (يعنى نفسه) وما بين يديه من منظر الماء والسماء، وما يحفه ويحوط به من الأشجار والأزهار ذات الألوان صنوان وغير صنوان وتغريد الطيار وتمائل الأغصان.... وكان لـ(....) صاحب البيت الفضل في تفاهم الأقوال وتفهم أحوال الأطوار بحسب القابلية والمواهب فللنفس في ما تشتهي مذاهب. ثم كان الافتراق.

وفي التاريخ.. لم أشعر إلا بتصريح دعوى علي بأني قلت: إن البرزخ والجنة والنار رؤيا، وإني اختصرت القرآن أو إني اختصره إلى ثمانية أجزاء، وأن لا شفاعة بلسان. ولما أني أعلم من حالهم ما أعلم من بعدهم عن تصور حياتهم المحصورة باستعمالهم آلة للسوء ومصدراً ومظهراً للثراء فعلمت بعد البحث أنهم في استغلال (٠٠٠٠٠) وأنه موحى إليه ذلك بهذه الصراحة، فكانت الحيرة بماذا أحمل وما أحتمل غرض (....) من هذا أو أسمع أنه سيكون شاهداً بذلك مما وقف عليه مما جرى من المحاضر، والمحاورات المذكورة آنفاً في المجلس المنسوب إليه وهنا لا أستطيع تصوير ما نزل بي من تصورات عابثة من استئجار المستأجرين وتلقينهم خلاف الواقع، فذهب الفكر مذاهب

بالاحتمالات حتى اتهمت أن العادة محكمة لكل امرئ من دهره ما تعودا. وعاداتهم في التحريف وتشويه الحق والحقائق.

ولقد كان يرجى أن يسمع بسلامة ما جرى في مجلسه، فإننا لم نظرق دنيه التي استحجرها حتى يفزع لما نخوض بما بعد الموت، وكان يجمل به إعمال قول الحكمة التي يتأثر لها أخط الناس عقلاً ومروءة، وهي (المجالس بالأمانات). وأقل حفظ للأمانة أن لا يزداد على الواقع ولا ينقص ولا يشوه، وله من حب كرامة مجلسه كما يجب كل كريم أن يكرم. وصرت أرجع الفكر لمعرفة دواعي الاستنكار وما الاحتمال، فحضرني جملة احتمالات منها إرادته لذة نفسه في الإساءة إلى الغير بغير ما سبب، فمتى كانت النفس شريرة أو رسخت على تعوده كان الشر غايتها ولذتها. أو أن الحديث في الجنة أغضبه لمبيانه حالها حال حينه، فقد يبلغ شره على المرء أن يكره أن يماثل فرضاً عن زيادة، أو أنه لما أتقن وسائل الإغراء بأحوال الدنيا فأراد اتخاذ وسائل الإغراء بأحوال الآخرة، أو أنه لما يعقل اتساع حياة ما بعد الموت وتصور أن عظيم المغنم في حال الآخرة فشرع يستعمل الوسائل الموصلة بعد الموت كما حصلت قبله، أو أنه استشعر من مساجلة الحديث أن إدراك الجنة بالصفات المحمودة والأعمال الخيرية العامة المشكورة، وأحسن من نفسه البعد والابتعاد".

لم يكن في نيتي التدخل في هذا المكان من النص الذي يشكل جزءاً من مذكرات الشيخ الحكيم حول مأساته التي ارتبطت بالمحاكمة القذرة التدبير والإعداد، إلا أنه مما يساعد القارئ على فهم النص الإشارة إلى أن الشيخ وهو يكتب مذكراته عن الواقعة كان يخشى أن تقع في يد من يحملها إلى الإمام فيتأجج حقه لذلك، فقد حاول أن يعرض به دون أن يذكر اسمه، أو صفاته،

واكتفى بناء الأفعال لجهول، فهو يستأجر المناوئين كما يستأجر شهود الزور، كما أنه حريص على تحريف الحقائق لكي يضرب خصومه.. إلخ.

ويبدو أن بقية النص الذي لا يخلو من الخدش والطمس قد تضمن جوانب من الدفاع الذي أعدّه لمواجهة التهمة الباطلة، ومن ذلك قوله إن الحديث -حديث المقيّل- قد تناول انتفاع "تلاوة القرآن بعد الموت". ومما قيل فيه إن حكمة الله في إنزال كتابه معنى قوله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً}. وهكذا يمضي في إيراد الأدلة والحجج على صحة ما دار في المقيّل من أحاديث شتى فيقول:

"وعلى ذكر انتفاع تلاوة القرآن بعد الموت ذكر حال من أثروا وكان لهم شأن في هذا الدنيا... إذا ذكر بآيات ربه يتغير حال من أحواله ليتيقظ من نومه وغفلته فيفزع إلى القرآن فرعاً ليعرف ما خلف منه ليرجع إليه، ولكن يفزع إلى بذل دراهم لتلاوة القرآن بلسان غيره، كأن المذكر غيره ولا دخل لنفسه أن يتفقد شيئاً من حاله، وكان الأولى بما أخرج أن يتصدق بما بذل، ويكون قد عمل بالقرآن وبلغ من هذا الاستعمال حتى يعلم أن ما جمع على غير وجه، وأن تصرفاته على خلاف.. وإذا ذكر بآيات ربه بتلاوة القرآن بلسان غيره قدر مراد الله كمراده وأمثاله إن ذكر بعضهم بعضاً أن يشرك المذكر فيسمح بالقليل مما جمع ويسلمها إلى أمناء صناديق الله وهم محترفو تلاوة القرآن وكلما في حاله ونيته.. ولا دخل على الدوام والاستمرار لتغيير أي شيء من سيئاته التي قدمت وكاد الأمر يعمي صوابه، فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يدها... داعي الشفاعة إما رحمة تنبعث عن مصارع السوء والشفاء فإنهم إليه واحد، هو الرحمن الرحيم، أو توهم الغفلة حتى يقع الخطأ،

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم"، فتكون الغفلة الخطأ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، أو العلم بالواقع وما يحسن فيه، "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض"، والمائلة "وهو العلي العظيم".

من هو ذلك الذي يجمع الأموال ثم يقدم القليل منها لحفظة القرآن قربة وشفاعة، من هو ذلك الذي يسلب حقوق الغير ويضمها لنفسه؟ "فكم بين من ينفع وبين من يضر فاندفع بعادة سلب حقوق الغير وضمها لنفسه على السنة المتبعة في المظاهر والوسائل والالتحاء. أو أنه فزع من الإمام ببعض الحقائق حيث يعلم يقيناً أن ظهور وجه الحقيقة الواضح تغيب شمسهُ وتدرج رسمه فلا يسمح لمحاولة مزاولة في موضوعها، أو أنه أراد أن (...) وانه لما أدرك السبب هو النسب أو عدم الفهم لمعنى المذاكرة في محل العلم والفهم مواهب. أو أنه استبعد واستجهل القول إن حياة القوم ومحسوسات الرؤيا تمهيداً لمعرفة حياة الآخرة، فالتشبيه من أعظم معاني البلاغة وفائدته إظهار الإخفاء بلا ظهور والله قد ضرب المثل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس. أو أنه قد رسخ بذهنه حياة الدنيا فتعذر أن يفهم غيرها أو يتصور، وحبك للشيء بعمي ويصم، وأن الحياة الآخرة غير الحياة الدنيا، ولا تحول ولا تبدل حتى في الحالة والوظائف وأن (...) سيكون في الآخرة كما هو الآن متولي تحويل (...) فيحول المتنازعين إلى الحاكم ويكونا متبادلين المنافع (هكذا وردت) كما هو الحال في الدنيا..

ولكل امرئ من دهره ما تعودا يا (...). إنا نؤمن بحريتك وإقدامك في عبثك، بمقام الخلافة. ونؤمن أن كل ما نزل بنا أثر من آثارك، ورجاؤنا أن تبقى لنا معتقداتنا رحمة، فالرحمة فوق كل شيء، فقد تنكر الدهر لنا بأمرك". ولا

يمكن أن يكون مثل هذا الحديث الذي يعبر عن غضب الحكيم ويأسه من العدل صادراً من مواقف ذلك الشخص الذي ألقى إلى الإمام بما دار في المقيل، وإن كان النص الذي بين أيدينا يتوجه إلى أكثر من طرف، فهو يشير إلى الامام تارة، ثم يعود إلى سرد ما حدث بقدر من التوثيقية أو الرصد القريب من كتاب المذكرات، وهو لا ينسى الشخص الذي كان سبباً في الحنة مع الإشارة إلى أنه كان مدفوعاً وأداة بيد السلطة العليا التي أرادت على أقل تقدير أن تمنع الحكيم من البقاء في صنعاء، ومن استخدام الخطاب الحمل بالرموز والكنيات للهجوم على النظام والتعريض بتخلفه وجبروته.

ويبدو أن هذه الأزمة التي أثارت فزع الشيخ الحكيم لم تمنعه عن مواصلة نشاطه، وربما فتحت أمامه آفاقاً أخرى للعمل، وجعلته يتجنب المواجهة المباشرة والاختلاط بالحاشية، وهو يختم ذكرياته عن تلك الواقعة موجهاً الحديث إلى الشخص المدفوع لإثارته قائلاً:

"فمهلاً يا (...). فلكل أجل كتاب، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، فليتنق من يضر، كذلك يضرب الله الأمثال".

تقدم هذه المذكرات صورة صادقة وبريئة لانهطاط المستوى الفكري والأخلاقي في ذلك العهد، وتكشف عن الطرائق المختلفة لاستغلال الإسلام والانتقام من الخصوم باسم الدين الحنيف، وإذا كان حادث المحاكمة يعود إلى بداية الثلاثينات، وبالتحديد إلى عام ١٣٥٠ هجرية الذي يتوافق مع ١٩٣٠ ميلادي، فإنه يؤرخ لبداية التفاعلات الوطنية، ويكشف عن احتياج الوطن إلى وعي أبنائه وكفاءاتهم وقوة إيمانهم لمواجهة ليل الطغيان الذي بدأ يمتد مستغلاً كل شيء لتثبيت أقدام النظام والتمكين لجلاديه من إطفاء كل نقطة ضوء في

مهدها حتى لا تنفذ حضارة العصر إلى أعماق الكهف وتوقظ بأشعتها
النائمين.

وما من شك أن هذه التجربة قد أفادت الطلائع الأولى، وجعلتها تتقبل
بصدر رحب دون خوف كل الإدانات الملفقة التي تفتقت عنها العقلية
الاتهامية للنظام العاجز عن مواجهة الحياة الجديدة بكل متطلباتها ومنطقها
العصري الداعي إلى التحديث، والذي لا يتعارض مع باطن الإسلام وظاهره،
لهذا عندما تكررت تهمة اختصار القرآن بعد ذلك بخمسة أعوام في مواجهة
عدد من الرعيل المستنير فقد قوبلت بسخرية عميقة.

وإذا كانت قد وجدت طريقها إلى أوساط الشعب فترة قصيرة من الزمن،
فإن الشعب ما لبث أن أدرك السبب الذي جعل النظام الذي اختصر بسلوكه
وأفعاله القرآن والشريعة، وبدأ (الشعب) من ذلك الحين يعي عجز الحكم
وحاشيته المحيطة، ويدرك إفلاس الوضع من كل القدرات الأخلاقية والفكرية.

ودائماً ينطلق التاريخ من وعي الطلائع المحدودة، ثم يتحول إلى فعل
جماهيري وإلى شعور عام يعكس الرغبة في التغيير. والشعوب -حتى تلك
المحصرة في قماقم التخلف- لا تستطيع أن تدير ظهرها للتطور، ولا تستطيع
أن تخون أحلامها. وقد تَصَوَّرَ الطغيان الحاكم نفسه قادراً على تحريك الشارع
ضد معارضيه من خلال استغلال الدين بذكاء ومهارة، وفي محاولة لضرب كل
مشروع للإصلاح والتقدم، لكنه -أي الطغيان الحاكم- أدرك بعد فوات
الأوان أنه عاجز عن تحدي عنصر الزمن، ومؤثرات العصر، وأثبتت له موجات
المعارضة المحدودة أنه نظام هش وضعيف، ولا يستطيع أن يمنع الشعب من
الشعور بالحرمان العميق وما يتبعه من تصورات غامضة للتغيير المطلوب، وقد
تمكنت طلائع المعارضة في الثلاثينات، وفي مقدمتها الشيخ الحكيم أن تجسم

فضائل الإسلام في وعي الشعب، وأن تطالب بتطبيق تعاليمه السمحة المتطورة التي خانها النظام واستعاض عنها بمجموعة من تقاليد الملك العضوض، وما يصدر عنها من مظالم وعسف، وما يحيط بها من واقع مضطرب عاجز.

ملاحق



حسن الدعيس الفيلسوف الفطري

محمد بن علي الأكوغ الحوالي^(١)

هو الحسن بن محمد بن سعيد الدعيس لقباً البعداني بلداً، الخولاني نسباً، ولد عام ١٣٠٣ هجرية، وقيل سنة ١٣٠٠ هجرية، بقرية منزل سبأ عزلة القرية من مخلاف بعدان، ووفاته في جمادى الآخرة ويلقب بالشيخ لأن عليه المعول في بلده.

كان أحد القادة الأذكياء وأحد زعماء الأحرار الممتازين، والفيلسوف الفطري الذي لم يأخذ الفلسفة عن دراسة وتعلم بل كان ذا فطرة فصار نابعة عصره وباقعة دهره، واحد الساسة النبلاء، وكان هو الذي يدير كافة المذاكرة في المجلس ويعمر مقيل الأمير إسماعيل باسلامة.. لا سيما في تفسير القرآن الكريم، فقد كان يعجب ويغرب، إذ كان يبرهن عن جدارة فائقة، ويظن به الظنون فيرجع إلى الكتب وعلم التفسير فيجد الحق في جانبه وكلامه الصائب. وكذلك آراؤه الفلسفية.

وكان يهدف إلى موافقة الشيخ محمد عبده، المصري، وتلميذه محمد رشيد رضا، حتى كنت أظن أنه يطالع تفسيرهما وكتبهما، فسألته يوماً هل لديك تفسير المنار لمحمد رشيد رضا أو تفسير الشيخ محمد عبده؟ فأجابني بالنفي.

كما كان يميل إلى آراء ابن تيمية وآراء تلميذه ابن الجوزية في الأحاديث

١ - من كتاب حياة عالم وأمير

والتأويل والفقهاء الإسلامي، ويشدد النكير على من يعتقد في القبور أو يقول بكرامة الأولياء، إلى غير ذلك من الآراء الحرة والتي لا تقبلها العامة.

والخلاصة أنه كان عبقرياً كما كان سياسياً حاذقاً إلا أنه لم تتح له الفرصة. وكان يتشيع في الإمام يحيى ضد الأتراك، وكان يرشد الرعايا بقوله: "يا رعيًا سمعتم لكم، بقركم لكم، بركم لكم"، ويعدد أشياء كثيرة على هذا المنوال إشارة منه إلى ظلم الأتراك، ويدعوهم إلى طاعة الإمام وعدالته وأن حقوقهم مصنونة بقانون الشريعة المحمدية. ولما ظهرت دعوة الإمام يحيى وبسط نفوذه وقبض الحكم بيد من حديد وبجل شديد فكان الدعيس هذا أول من تجرع الغصص وازدادت محنته معه مضاعفة في ولاية يحيى بن محمد بن عباس.. فإنه لقي منه عَرَف القربة من المهانة، وعدم التقدير لمكانته ولأياديهِ السالفة.

وكان عادته إذا قدم من بلدته نزل على الأمير إسماعيل لما بينهما من صهارة ولما عند إسماعيل من جود وكرم. وكان يخصص له غرفة خاصة في أعلى الدار فكان إذا تم أكلة الغداء عاد إلى غرفته لينام ثم ينزل للمقيل في الديوان (المجلس العام)، فبمجرد أن يظهر من باب الديوان وهو غاص باهله يواجهه الأمير إسماعيل مازحا عليه ومتندرا: يا رعية سمعتم لكم بركم لكم غنمكم لكم، إلى آخره، فيجاوبه الدعيس بقوله: هيا عَ خلنا يا إسماعيل. بينما المجلس يضحك ساخرا.

ولما عجز من مصارعة يحيى بن محمد عباس وأخفق، عزم إلى الإمام يحيى لإزالة شكواه فلم يستجبه. وفي مدة إقامته بصنعاء كانت تعقد مجالس القبيلة لديه ولدى غيره ويجزرها أمثال أحمد بن أحمد المطاع وأخيه محمد بن أحمد والعزي صالح السنيدار ومحمد المحلوي وتدار كؤوس المذاكرة وتشتد المناقشة ويتبادلون أطراف السياسة في حذر وانكماش، وكانت تبلغ الإمام يحيى فخاف مغبة ذلك، فعينته عاملاً في ناحية "جبل

راس"، من بلاد الأشاعرة (من أعمال قضاء زبيد، لبث فيه نحو عامين ثم عزل).

وفي سنة ١٣٦٣ هجرية أُلقي عليه القبض ونفي إلى حجة مع مجموعة الأحرار الذين يبلغ عددهم واحدا وخمسين شخصا من صفوة رجال اليمن. ومكث في منفاه قاهرة حجة ثلاث سنوات وكسر، وكان من آخر من أفرج عنهم في ربيع الأول سنة ١٣٦٧ هجرية، وكانت طريقته على صنعاء حيث التقى بكبار رجال المؤامرة التي كانت على قاب قوسين أو أدنى من تفجيرها وتنفيذها فلم يمكث غير شهر حتى أعلنت الإمامة الدستورية ونشر الميثاق الوطني المقدس، وعيّن فيه وكيلا لرئيس مجلس الوزراء فاستدعي إلى صنعاء لتسلم منصبه في الحكومة، فلما وصل إلى مدينة إب وعرف الأمور عن كثب خصوصا بعد أن تخلص أحمد بن يحيى حميد الدين من القتل بتعز، ووصل حجة معلناً إمامته، اعتذر بالمرض.

ولقد اجتمعنا به ليلة وصوله ونحن في فرح ومرح كأننا كنا في أكثر من عيد سعيد وموسم جديد. وبعد مذاكرة ومناقشة قال لنا بهذا اللفظ: "ولو تبقى امرأة من بيت حميد الدين لتملكت اليمن".

فاستخفينا برأيه وسخرنا بأفكاره، وتحقق لي مجددا أنه في لسوف بالمعنى الكامل وأنه يعرف أبعاد القضايا ومصائر الأمور وإن كنا خرجنا من عنده واجمين. ثم نزل إلى تعز فعرف الأوضاع عن كثب وأكثر فأكثر فاستأذن من أمير تعز محمد بن أحمد بن علي باشا بالسماح بنزوله عدن للتداوي وهناك ألقى عصاه وتكشفت له الأحوال وهو بمنأى عن الأحداث فلم يرجع إلى وطنه إلا بأمان ووجه من الإمام أحمد.

والحال إنه قد نهبت بيوته وأخرب البعض منها، وحُبس أكبر أولاده ومات غيظاً في السنة المذكورة آنفاً، بعد وصوله إلى بيته بأسبوع واحد في آخر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧ هـ.

وبعد عشر سنوات أو أكثر وقفت على سيرة ذي الشرفين وفيها كلمة الشريف الفاضل ردا على محاولة الهمدانين بقيامه بالإمامة ضد آل الصليحي وهي، والله لو لم تبق من بني الصليحي إلا جارية لقاتلتنا، وأثبتناها في تعليقنا على مفيد عمارة ص ١١٨ كما أرجعت تفسير هذه الكلمة إلى ذوق القراء.

ومن موافقه الحاسمة وقت المذاكرة العلمية في مقييل الأمير إسماعيل وكان من جملة المقييلين الحاج العلامة محمد بن يحيى مداعس، وكان يشغل منصب أمين صندوق مالية قضاء إب، فدارت المذاكرة حول ميثة المسلم هل هي طاهرة أم نجسة، وكان غالبية أهل المجلس شافعية ومذهبهم طهارة ميثة المسلم، والحاج محمد هادوي زيدي، يقولون بنجاسة ميثة المسلم. واشتدت المناقشة وكل أدلى برأيه وحجته ولم يقتنع الحاج محمد مداعس، فقال الشيخ حسن الدعيس: "هيا ينفع صلح: من سُمارة فمَنْزل ميثة المسلم طاهرة، ومن سُمارة فمطلع ميثة المسلم نجسة". فكانت كلمته فاصلة واستغرق المجلس بالضحك للنكتة.

ومن كلماته المأثورة: إن نجاح الحركة الوطنية ترجع إلى ثلاثة عوامل: الأول حركة الأحرار، وهم (أي نسبة إسهامهم) واحد بالمائة. والثاني جهود بعض أهل المعافر وتموينهم لحركة المعارضة. وهم ثلاثة في المائة.

وثالثهما عناد وإصرار بيت حميد الدين وعدم استجابتهم لصوت الحق. وهم ستة وتسعون بالمائة.

حسن الدعيس: القبس الثاني في الحركة الوطنية

محمد بن عبدالله الفسيل^(١)

هكذا شاءت الأقدار، أو شاءت الإرادة الإلهية، أن تجعل في كل منطقة يمنية قبسا للحرية يشع بالفكر المستنير.

وكان بين هذا القبس وذاك اتصال متين، وصداقة أكيدة، وتوافق عقلي وروحي. وقد تأثر كلُّ بصاحبه، وتعاون معه في أداء الواجب، وأقسم له أن يحمل رسالة التحرير، ويبث نور الحرية والمعرفة والحكمة في العقول والنفوس والضمائر، حتى يلفظ النفس الأخير من الحياة.

فمن يكون هذا القبس؟

انه الشيخ العالم الفيلسوف حسن بن محمد الدعيس البعداني، ولئن كان الحلوي (الثائر محمد بن عبدالله الحلوي موضوع حديث الفسيل في حديث متقدم من كتابه) كما وصفنا، فقد كان هذا أوسع منه شهرة، وأبرز شخصية في المجتمعات اليمنية، وإن كان الحلوي أسبق منه جهادا.

وللدعيس أثر كبير، لا في القسم الشافعي من اليمن فحسب، بل انتشرت أفكاره، وأثرت على عدد من الشخصيات الفاعلة في أنحاء اليمن.

وكان الدعيس رحمه الله واسع التفكير، قوي التعبير، تسيطر لهجته على المستمعين، ويخلب منطقته الحاضرين. وكان أسلوبه أسراً

١ - من كتاب نحو النور، ١٩٥٣.

قويًا، وبديهته حاضرة طيبة، ولا يستطيع السامع الفكك منه إلا مقتنعا، معجبا بقوة عارضته، ومتانة منطقته.

كان يغشى المجتمعات اليمينية العالية ويسيطر بمنطقه عليها، فلا تجد الناس إلا بين معجب به أشد الإعجاب، وبين متهيب محترم له، يحذر أن يتورط معه في نقاش؛ فقد كان قوي الحجة إذا بدأ الحديث، مفحم الجواب إذا رد.

وهو يتدلى الحديث دائما بالسؤال، ثم يستمع إلى جواب محدثه، ويلف معه ويدور بطريقة الاستدراج فلا يشعر محدثه إلا وقد سلم أو تورط فيا لا خلاص له منه.

وكانت السلطة تهابه وتقدره وتحقد عليه في وقت معا، وكان الأمراء يتهيئون الخوض معه في الكلام، حتى الإمام يحيى نفسه، إذ كان صريحا جريئا قوي السخرية، عميق النكته خلاقها، يجعلك يُضحك من لا شيء، وكانت إيماءته تعبرا قويا واضحا.

كانت آراؤه كلها حرة، لا يبخل في عرضها، ولا يجبن عن نشرها في محاضراته التي كانت أحب شيء إليه وإلى مستمعيه. ولقد ناصبته السلطة العدا، وضايقته، فعاش عيشة الفلاسفة المصلحين، مقتنعا بآرائه، مدافعا عنها بكل وسائله؛ حتى لقد اتهمته السلطة المتوكلية - أو على الأصح اتهمه الإمام يحيى بالزندقة، وطعن عليه في معتقده، وشكّل محكمة صورية لمحاكمته، ليسفك دمه أمام الجمهور بتهمة مروقه عن الدين، وإنكاره البعث. وهو بعيد كل البعد عن هذا، فقد كسب القضية، وأوقع رجال الحكمة في خزي وعار، وسخر منها ومن أذئاب السلطة سخرية اثار إعجاب الخصوم أنفسهم.

وعندما لمس أن الأفكار قد بدأت تستنير، وأنه قد أبتدأ كفاح الشعب ضد ظالميه، برز غير متردد رافعا صوته في الأحرار، فقست عليه السلطة قسوة عنيفة، وصبت عليه جام سخطها، فقيدت ذلك

الشيخ الوقور بحمسة قيود في بيته، وأبقتة عشرة أيام لا يستطيع النهوض لثقل القيود، فسقط مريضا، ثم لم تشفق عليه لما ألم به، ولم تقدّر جهاده السابق في تثبيت قواعد عرش الإمام يحيى، فقد كان من أعظم انصاره بالمال والرجال في خلال الثورة ضد الاتراك. فأخرج من بيته مريضا، وسيق مع من سيق من معتقلي سنة ١٣٦٣ هجرية، من الأحرار الذين عذبوا، أو طوف بهم الإرهاب الناس في صنعاء وإب وتعز، وكانوا عددا كثيرا طالبوا برفع المظالم، وتنظيم شؤون البلاد، فنُفوا وزج بهم في سجون «حجة».

وفي سجن حجة عاش هذا الفيلسوف المسلم ما يقرب من أربع سنوات، لم يتضعع ولم يتبرم، وكانت شخصيته قوية محترمة عند المعتقلين، وحتى حرس السجن القساة، وزبائنه الغلاط استطاع أن يكسب إعجابهم، وبذلك خففوا شيئا ما من قسوتهم على المعتقلين.

وخرج من السجن قبل الانقلاب بأشهر، مريضا، وكانت طريقه من صنعاء، وهناك كانت النفوس متبلبة، والخواطر مضطربة والجو يوحي باقتراب العاصفة، فألم الفيلسوف المصلح بكل ما يجري، ولم يمنعه مرضه، ولا أثر السجن في نفسه عن الاطلاع وتتبع الحركة، فكان يدا قوية في دفعها إلى الأمام، وبهر رجالها مجرأته وحكمته، فقد كان كثير من الشخصيات البارزة يترددون في إقرار «الميثاق الوطني المقدس»، والتوقيع بأسمائهم عليه، فكان الشيخ الفيلسوف، أول من أقسم يمين الإخلاص، وتناول القلم ووقع على «الميثاق»، ثم تكلم بجرأة عن الحرية والدستور، وبيّن للحاضرين أن المسلم الحقيقي هو الذي لا يقر الظلم والاستبداد، ولا يتردد في أداء واجبه الوطني، فتأثروا به وأقسموا ووقعوا «الميثاق الوطني المقدس».

وغادر الشيخ المريض صنعاء إلى بيته، ولم تمض فترة حتى حدث الانقلاب اليمني المعروف في السابع من شهر جماد الثاني سنة ١٣٩٧

للهجرة (فبراير ١٩٤٨)، فصرع الإمام يحيى، وقامت على رأس اليمن حكومة رشيدة، فأعلنت الدستور الإسلامي، ونادت بالحرية والعدالة والمساواة. وطلبت من المصلحين والمفكرين أن يقوموا بواجبهم، فهب الشيخ - وكان لا يزال يشكو المرض - وشارك القائمين بالحركة في أعمالهم الوطنية، ولا سيما وهو يجتث في حكومة الدستور منصب وكيل رئيس "مجلس الشورى" أو «مجلس الأمة».

لكنه أحس بوطأة المرض تقعد به، فصمم أن يذهب للتداوي في «عدن»، وبذلت له الحكومة الدستورية المال فرفض، - برغم حاجته إليه. وقال: إن الحكومة الرشيدة "الدستورية أشد حاجة مني إلى المال، لأن عليها اليوم أن ترمم بالمشروعات الضخمة خراب مئات السنين الظلمة المدمرة التي مرت على اليمن".

وذهب الفيلسوف للتداوي في «عدن» وشاءت الأقدار أن تنهار حكومة الحرية والدستور وتسقط، وتقوم حكومة الطغيان المتغلب من جديد، وتهدم وتدمر؛ وكان من أعمالها الإرهابية أن أمرت بنهب بيوت هذا الفيلسوف وهدمها، ونهب القرى المجاورة لبيوته، والتي يقيم بها بعض قرابته؛ وتلقى الفيلسوف هذه الأخبار بعدم اكتراث، مصمما أن يخوض معركة الجهاد ضد البغي والاستبداد من جديد، ولكن ماذا؟..

ماذا حدث؟... هذا البوليس يضايقه في «عدن» وهذه الشيخوخة المقعدة لا تسمح له بالتسكع في المهاجر، وتلك عائلة كبيرة من النساء والأطفال يلقي بها المستبد إلى الكهوف والأغوار، ويهدم بيوتها وأكواخها، وهذا الفقر والجوع يهدده ويهدد عائلته بالموت، فماذا يصنع!

واذن، فليطلب من حكومة الإمام أحمد الأمان، وسرعان ما أجيب إلى ذلك. وبه عاد، وتدارك الإبقاء على بعض الأسرة والإبقاء على بعض البيوت التي صدرت الأوامر بهدمها.

ووصل إلى مقام الإمام أحمد فتلقاه بالترحيب، ومثل معه رواية عبد الحميد مع مدحت، فاهتم بشأنه، ولكن.. ولكن ليموت بعد ذلك بقليل، موتة «سقراطية» فقد دس له السم فمات شهيدا رحمة الله عليه.

هكذا مات «القبس الثاني» في تاريخ قضيتنا اليمنية، وأولاده في السجون، وعائلته منكوبة. ولكنه في سبيل الله والحق والوطنية.

بقي أن نسأل بمن تأثر هذا الفيلسوف؟ وهذا ما لا نعرفه بالضبط، وكل ما نعرفه عنه، أنه كان ذكي الفؤاد، عميق الفكر، خصب العقل عبقرية متفوقا، وكان له نظرات ثاقبة في الطبيعة وما وراء الطبيعة، وفي الروحانيات والماديات.

وكان مسلماً بكل ما في الكلمة من معنى، وله آراء في تفسير آيات من القرآن نابعة من إيمانه القوي. وهو تفسير على نمط تفسير الشيخ الإمام محمد عبده.

وكان واسع الأفق، كثير المطالعة، لازم أحد علماء مدينة «إب» وهو العالم الجليل عبدالرحمن بن علي الحداد، وتأثر بأديب كبير، آية في الحفظ والذكاء وهو الحاج محمد الصباري البعداني.

رحم الله الشهيد الدعيس، ورحم الله الشهداء.

تم بحمد الله؛